

یوسف ادیبی

جادۂ سرف



حَسَادَةُ شَرَفٍ

مطبعة خان بكنته لاهور

حَادِثَةُ شَرَفُ

مجموعة قصص

تأليف

يوسف إدريس

« الطبعة الثالثة »

الناشر : مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفيلا"

سعيد جودة السحار وشركاه

محطة

في المحطة الأولى صعد الشاب — واحد من شبان هذه الأيام — القميص « نص كم » ومفتوح مع أنثالا نزال في الشتاء ، وشعرات الصدر القليلة بارزة من فتحتة ، والبلوفر مخلوع ومربوط من أكمامه حول العنق ، والسلسلة إياها تارة ملفوفة حول ساعده وأخرى دائرة بين أصابعه ، ونوت المحاضرات راقدة في إهمال تحت إبطه ..

وفي المحطة التالية صعدت الفتاة — واحدة من بنات هذه الأيام — نحيفة قمحية ، حتى ابتسامتها قمحية ، شعرها ذيل حصان ، وصدورها لم يبلغ بعد حب الرمان ، ولكن (السوتيان) تكفل بإنضاج حب الرمان . وكانت تمسك في يدها منلوب العائلة — أخاها الصغير — الموفد لا بد لحراسة الحمل النحيف من قطعان الذئاب .

وأتوييساتنا مزدحمة ودائما مزدحمة ، حتى ليخيل لى أننا لا نعتبر ازدحامها مشكلة ، ولكننا نعهده مفخرة قومية كالأهرام وأنى الهول سنظل نحفظ بها إلى أبد الدهر .

وكان الأتوييس مزدحما .. ومزدحما بالرجال الكبار ، كلهم يرتلون السترات الغامقة وأربطة العنق الوقورة . الجالسون جالسون في أدب واتزان ، والواقفون واقفون رغم تلاصقهم وازدحامهم في جد وحزم ، حتى حين كان الأتوييس يهوى بالواحد منهم ويجعله يتأرجح كالدائخ ذات اليمين وذات اليسار ، كان يفعل هذا في جد ووقار أيضا وبوجه صارم الملامح والقسمات .

والسيد الجالس بجوارى كان هو الآخر من هذا الصنف الوقور الحازم ، بل كان واضحا أنه أكثر الركاب جداء ووقارا إذ كان هو الوحيد الذى يرتدى بالطوف فوق بدلته ، مع أن الصباح كان جميلا مشرقا يغرى الإنسان بالمشى عاريا تحت أشعة الشمس .

وحين صعد الشاب صعد مبتسما ، ولكن أحدا من الرجال الكبار لم يعبا به أو بابتسامته .

وحين صعدت الفتاة صعدت مبتسمة ، ورمقها الرجال الكبار ذوو السترات بنظرات سيئة النية ، ولكنهم اطمأنوا حين وجدوا أنها فى أعمار بناتهم أو دون ذلك وأنها لا تصلح للفراش بل لا « يليق » أن ترى مع أحدهم فى الشارع ، ولهذا سرعان ما صرفوا النظر عنها وعن ابتسامتها . ولكن جارى أعلن رأيه بصراحة ، فقد شعرت به يتململ داخل البالطو حين صعدت الفتاة وما لبث أن عقد ملامحه وقال فى شبه غمغمة مستنكرة :

— ودى إيه اللى يخليها تركب فى الزحمة دى كان .. قلة أدب ! وكدت أنا الآخر أصرف النظر عنها لولا أن حدث شيء ، نفس الشيء الذى يحدث كلما صعد إلى عربة الأوتوبيس راكب جديد . فقد تقلقلت صدور واصطدمت بطون واستعملت الأكثاف للمرور ، وتبودلت كلمات الاعتذار بالإنجليزية والفرنسية والعربية والبلدية ، وحدثت حركة تنقلات وترقيات بين أصحاب الأمكنة وحاول كل منهم أن يتنزه الفرصة ويختل المكان الذى طال حلمه به .

وكان من نتيجة تلك الحركة أن جاءت وقفة الشاب الصغير بجوار الفتاة الصغيرة ، وجاءت وقفتها بجوار المقعد الذى أحمله أنا والسيد جارى .

ورمق كل منهما الآخر بنظرة سريعة لا هدف لها ولا معنى .. لم تغير من الابتسامة التي صعد بها كل منهما ، بل لم يلحظها أحد من ركاب العربة .

و كنت قد عانيت الأمرين من السيد جارى . فمنذ أن جلس بجوارى وهو لم يكف أبدا عن الحركة ولا عن التعليق ولا عن إعطاء الأوامر الخاصة للسائق حين تدخل العربة فى مأزق ، أوامر يقولها بينه وبين نفسه : اطلع يا جدع . خذ يمينك . سواق نيله .

وأنا لا أحب أن ينادينى أحد بكلمة السيد لست أدري لماذا . تصور اسمك مقرونا بلقب السيد حتما ستحس أن شيئا فيك قد تغير أو تجمد ، أو أنك أحلت مثلا إلى الاستبداد . ولكن هناك أناس تحس أن لقب السيد فلان يناسبهم جدا . وكان جارى من هذا الصنف ، لا تملك حين ترى طربوشه وتكشירתه ومعطفه والشعر الأبيض فى ذقنه الذى يخلق يوما بعد يوم إلا أن تقول له يا سيد .. وإن لم تقلها له غضب ، ولهذا فهو الذى يبدوك باللقب حتى لا تنسى أن تعيده إليه إذا حادثته .

كان واضحا أنه يحب الأصول .. والأصول ألا يأخذ الناس على بعضهم بسهولة . ومع هذا فمنذ أن جلس بجوارى وهو لا يعاملنى بالأصول أبدا ، فقد احتل وحده أكثر من ثلثى المقعد ومع هذا ظل كوعه مغرورا فى جنبى يكاد يخرق حجائى الحاجز ، وكان قد قرأ من جريدتى أضعاف ما قرأته منها ، وحين قررت حلا للإشكال أن أعطيها له ألقى عليها نظرة سريعة ثم طواها وردها لى ، وما كدت أفتحها حتى وجدت وجهه يتسلل من فوق كتفى ويعاود القراءة ولعله لمح فيها دواء مقويا للأعصاب » . ثم إن عينه لم تغفل عنى لحظة ، حدق فى وجهى مرات

ربما ليرى إن كنت أحمل شبه إحدى العائلات التى يعرفها . وحين أخرجت محفظتى لأدفع جرد كل محتوياتها بنظراته الجانية واشمأنط حين وجدها شبه خالية ، حتى حذائى لم يسلم من تحديقاته ربما ليعرف إن كان نعله جديدا أو ليدرك نوع جوربى وحالته الداخلية ، ومن كثرة خجلى أدخلت قدمى تحت المقعد لأريحه وأريح نفسى .

ولم ينقذنى من نظراته إلا مجئ الشاب الصغير والفتاة الصغيرة فقد تركنى وتحول إليهما .

ولأننى كنت بعيدا عن النافذة لم يعد أمامى لكى أقطع الوقت إلا أن أنظر فى وجوه الركاب . ولم تفلح هذه التسلية لقطع أى وقت فقد كفتنى نظرة واحدة إلى الوجوه لكى أدرك أنها نسخ متفاوتة الإتقان من جارى العزيز .. وهكذا لم يعد أمامى إلا أن أراقب الشاب الصغير والفتاة الصغيرة .

وبدأت أجد فى مراقبتهما تسلية عظمى .

فقد لمحت أجسامه الشاب الطبيعية يرتجف سطحها قليلا قليلا ويتغير شكلها ويصبح لها معنى خاص مضى يمسح به وجه الفتاة وشعرها وجسدها وحتى ملابس أخيها الصغير .

المسألة فيها إعجاب إذن .

وكان إعجابا ، مجرد إعجاب غير موجه إلى الفتاة بعينها ، ولكن إعجاب أى شاب صغير بأى فتاة صغيرة .. ولكن الأمور بدأت تتطور .

فقد اتسعت ابتسامته حتى شملت وجهه كله ، وبدأت السلسلة تضطرب فى يده وأصابعه تتجاذبها بلا وعى وفى عصبية .

وقلت في نفسي : عظيم ! إنه يريد أن يكلمها .
وأن ينظر الشاب إلى فتاة مسألة سهلة ، وأن يتسم لها مسألة أسهل ،
أما أن يكلمها فتلك هي المشكلة .. المشكلة التي شغلت جيلنا كله أيام أن
كنا طلبة في الكليات وشبابا حديثي التخرج . كنت لا تجد شابا منا
إلا ولديه مشكلة من هذا النوع ؛ وكل يوم ينتحى بك صديق من
أصدقائك ركنا ويسوق مقدمات طويلة ويدعى أول الأمر أن المشكلة
خاصة بشاب آخر ، ثم ينفجر في النهاية قائلا : أحبها يا أخى وأعبدها ،
وهي جميلة وأراها كل يوم وترانى ، وأجلس بجوارها في المدرج أو في
الأتوبيس وابتمس لها كثيرا ، وأحيانا يخيل إلي أنها تبتسم لى فدبرنى ماذا
أصنع ؟ ..

وتجد أن الحل في غاية السهولة فتقول :
— كلمها يا أخى كلمها .

ولا بد أن يضحك مستشيرك ضحكة هستيرية مغتصبة ويقول :
— وجبت إيه من عندك ؟ ما أنا عارف .. إنما ازأى .. ازأى
أكملها ؟!

ولا تظن أن مستشيرك هذا قد فتح صدره لك وحلك باعتبارك
صديقه الحميم ، فلست إلا واحدا من عشرات وربما مئات حدثهم
وكاشفهم وخبط رأسه في الحائظ أمامهم وهو يقول :
— المشكلة كيف أكلمها ؟

وتظل المشكلة معلقة شهورا طويلة وربما سنين . أحد زملائنا ظل
يجب زميلة له خمس سنوات بأكملها دون أن يجزئ على مخاطبتها ، وحين
جمع شجاعة الدنيا وذهب يحادثها ألقى على مسامعها الجمل الخمس التي

كان قد جهزها ، ثم استأذن منها وغادرها في الحال حتى قبل أن تفتح هي فمها وترد .

ونفس الوضع لدى الفتيات ولكنهن لا يملأن الدنيا عويلا وصراخا كما يفعل الشبان . هن يصمتن على نار والمشكلة تحيرهن وصلورهن العذراء تحترق احتراقا داخليا لا تطفئه دموع ولا تهديدات ، وتؤججه الأغاني والروايات . وكل جنس يريد الآخر ويراه ويلمحه ، وليس بينه وبين الآخر مسافة .. ومع هذا فهناك حائط زجاجي سميك لا يدرى أحد من أقامه ولا يجزو أحد على كسره .

ولكن جيلنا أفاق .. فوجدنا إخوتنا الصغار وأطفال جيراننا وأولاد المعارف ، قد استطالت أجسامهم فجأة واخضرت شواربهم وكشفوا الصلور والسواعد وبدأت أصواتهم تتغير ، وبدأت إذا حاولت أن تمنع الواحد منهم عن مناقشتك قال لك :
— إزاي ؟ أنا مش عيل .. أنا راجل زبي زيك .

* * *

وكان الشاب لا يزال يبتسم في غموض وحيرة ويحرك رأسه ليأخذ وجهه أوضاعا مختلفة ، وينظر إلى قدمه مرة ثم يسرح فجأة ويتأمل سقف العربة ، ويمسك بعامود الأوتويس ويقبض عليه بشدة ويتململ محرجا ويعود ينظر إلى الفتاة تلك النظرات الخاصة .

وابتسمت . كان الشاب الصغير واقعا في نفس المشكلة التي لم نجد لها حلا . ترى هل لم يجدوا لها هم الآخرين حلا ؟ ارتباك الشاب واضح ، وأتحداه إن كان يستطيع أن ينجح فيما فشلنا فيه .

كان لا يزال يحاصرها بنظراته ورغباته الخرساء ويحاول أن تلتقي أعينهما ليكلمها بعينه . وكانت الفتاة واقفة بجواره تماما ولكنها لم تكن تنظر إليه .. كانت عيناها مركبتين على رأس أخيها الصغير . ومع هذا كانت تبتسم بطريقة ما ابتسامة تحس معها أن الفتاة وإن كانت لا ترى نظرات الشاب الموجهة إليها وتدعى أنها لا تحفل بوجوده ، ومع ذلك تحس من الطريقة التي تبتسم بها أنها تترك وجوده وتشعر أنه يحاصرها بنظراته وأنه حائر مرتبك متردد ، وكان لها ألف عين غير مرئية تنقل لها بطريقة خفية كل ما يحدث عن كثب منها .

وبدأت أنفعل وكأني أشاهد مباراة للأشبال .

وبدا قلبي يدق ويتمنى أن يبقى كل شيء على ما هو عليه ، وأن يبقى الشاب مرتبكا مترددا .. وأن تبقى الفتاة صامدة كالقلعة الحصينة حتى ولو لم تكف عن ابتسامتها التي لم يكن لها أى مكان فى أتوبيس مزدحم كهذا . واكتشفت أنني لست وحدى الذى يشهد الصراع فقد التقت نظراتي المتلصصة بنظرات السيد جارى وهى تؤدى نفس المهمة . وطبعا كان اللقاء مخجلا لكلينا ، وعقد جارى ملامحه حتى أصبحت أكثر جدية وخطورة وادعى أنه ينظر أمامه نظرات دوغرى لا يمكن أن يلومه عليها أحد . ولم يمنعه هذا طبعا من أن يحرك عينيه فى محجريهما خلصة ليشهد ما يدور هناك . وكذلك لم يمنعه خجلى من أن أجعل نظراتى تسترق الخطى هى الأخرى فى دوريات استطلاعية متقاربة .. كنا فقط نتحاشى أن تلتقى أنظارنا ، وإذا التقت — لسوء الحظ — طلى كل منا وجهه بقشرة سطحية مبتسمة وادعى أنه فقط ينظر ببراءة إلى وجه الرجل الأفطس الواقف قريبا من الشاب والفتاة سابحا فى ملكوت من صنعه .

ظلمت أنا وجارى نلعب لعبة « الاستغماية » هذه حتى حدث شيء .
فقد وقف الأوتوبيس ثم تحرك .

وكعادة الأوتوبيس إذا وقف ثم تحرك أن تحدث الاصطدامات التي
لا بد منها بين كل جار وجار ، والتقت الوجوه مبتسمة ومعتزلة .

وكذلك التقى وجه الشاب بوجه الفتاة وابتسم الشاب معتزلا .
وقبلت الفتاة اعتذاره باسمه .

وازدادت حركة الشاب ، حتى حذاؤه كان يتحرك بتردد وعصية
وكأنما يحاول أن يجد له مكانا بين الأحذية الضخمة الكثيرة المتراكمة
حولها ، ولم تكف عضلات وجهه عن التغير .. تنقبض وتنبسط
وترتجف ، وأحيانا يبتسم فجأة بلا سبب ثم يلتفت إلى الفتاة وكأنه يهم
بفعل شيء ولكنه سرعان ما يرتد وبه بعض الشحوب .

والفتاة كانت قد أمسكت بيد أخيها الصغير بعد أن كان هو الذى
يمسك بيدها ، وراحت تضغط عليها ضغوطات منتظمة بينما وجهها قد اتخذ
زاوية معينة لا يحمدها .

أما جارى فقد راح يتأفف من الحر ، ولكن يبدو أنه أحس بأن الأمور
سوف تتطور حالا فقد ترك خجله منى جانبا واستدار بوجهه كلية إلى
حيث يقفان .. ولم يرفع عينيه منذ تلك اللحظة عنهما أبدا .

وعلى حين بغتة استدار الشاب مرة وحمل وجهه ظرفا كثيرا ، وأعاد
اعتذاره إلى الفتاة عن الصدمة السابقة فى همس خافت بدا كأنه نجوى .

ولم ترد الفتاة هذه المرة .. ولكنها خفضت رأسها واحمر وجهها .
وازداد اضطرابى .

وازداد أكثر حين عن لأحد الركاب الواقفين وكان سمينا ذا كرش عظيمة أن يغير من وقفته ، فتحرك حتى أصبح جسده الضخم يحول بيننا وبينهما . وكان اضطراب جارى أفظع .. ورحنا نحن الاثنين نصوب للرجل وكرشه نظرات نارية ملتبة تكاد تحرقه أو تذيبه لكي نستطيع العودة إلى متابعة المشهد .

ويبدو أن الرجل أحس من نظراتنا أننا نتهمة بتهمة أبشع من مجرد التستر ، فقد وقف محرجا مرتبكاً لا يدري ماذا يفعل ليرضيها .. وسرعان ما خف الجار إلى نجدته فقال له بصوت جاد آمر :
— ما تفضل حضرتك تخش جوه فيه وسع جوه .. اتفضل جوه مضايق نفسك ومضايق الناس ليه ؟ ما دام فيه وسع تضيق على نفسنا ليه ؟ .

وتحرك الرجل وهو يشكر للجار نصيحته ..
وعدنا إلى مسرح الأحداث وعاد وجه جارى يخفل بالاستمتاع والنشوة .

وخفت أن أكون قد عدت متأخرا كثيرا .. ولكن حمدا لله ! كل ما كان قد حدث أن الفتاة قد رفعت رأسها وأن الشاب كان قد مد ذراعه اليسرى ليمسك عامود الأوتوبيس ، فأصبحت ذراعه لصق شعرها . ولحت فمه يرتجف .. لا بد أنه يجرب كلمات ما قبل أن ينطقها . وأحسست بالارتياح .. هكذا كنا نفعل . ولكننا كنا حين نوجد في حضرة الفتاة تتسمر الكلمات على أفواهنا ولا تنطق .

ولكن الشاب هز نفسه وقال في همس ملح :
— أنا شفت حضرتك في الجامعة .. في الآداب ؟ مش كله .

وما كاد ينتهى من آخر كلماته حتى كان وجهها فى حالة غضب كامل وحتى كانت قد استدارت إلى الناحية الأخرى فى اشمزاز ظاهر . بينما راحت يدها تتابع ضغطها على يد الأخ الأصغر ، والمسكين يحاول أن يخلص يده من يدها بلا فائدة .

وصحيح أنى لم أسترح إلى الطريقة التى غضبت بها ، فقد غضبت بسرعة غير عادية وكأنها كانت تتوقع أن تحدث محاولة كهذه . ثم لماذا تلك الضغوطات العصبية على يد مندوب العائلة ؟

ومع هذا راحت أرمق الشاب الصغير فى شماتة وتوقعت أن وجهه لا بد أن يحفل حالا بالبياض والعرق ، ففى أمثالى هذه المناسبات كانت صدمتنا تمتد إلى أسبوع وربما أكثر .

ولكنى لم أجدف وجهه شحوبا ما ولم أجدف نقطة عرق باردة واحدة ، وجدت ابتسامته لا تزال كما هى وكل شىء فيه كما هو ، وكأنه هو الآخر كان يتوقع هذه الغضبة الأولى . وقلت لنفسى لا بد أنه من الصنف البارد التلم ، ولكنى أدركت أنى ظلمته فلم يكن يبدو عليه برود أو تلامه . كان شابا عاديا جدا لا تحس به جريئا ولا خائفا ولا واسع الحيلة أو قليل الدهاء .

وفى أيامنا كنت تقتلنا ولا نستطيع أن نكرر المحاولة ، وكنا لا نعمل شيئا طوال أيام كثيرة إلا أن نستعيد دقائق ما حدث فى المحاولة الأولى .. ونهى إلى آبار خجل لا قرار لها ، ونظل نؤنب أنفسنا ونلعن من أشار علينا ونسب الدنيا والحظ وأحيانا نفكر فى الانتحار .

أما الشاب الصغير فقد اقترب مرة أخرى منها وهمس فى إلحاح جديد :
— الله ! مش المدموازيل فى الآداب ؟

ولم تتحرك شعرة واحدة فيها وكأنها لم تسمع .
وبدأت أنفائل .

ولو كنت مكانه لهُبطت من الأوتويس في الحال ، ولظلمت أهدم على
وجهى فى الشوارع حتى أنسى مرارة الفشل . ولكنه قبل أن يحتفى صدى
الجملة الثانية كان قد اقترب بوجهه من وجهها للمرة الثالثة ، اقترب كثيرا
وهمس فى عصبية :

— حضرتك رايحه هناك ؟

وظل رأسها ثابتا فى مكانه ووجهها ثابتا على وضعه ونظراتها مركزة
على رأس الأخ الأصغر . شفتاها فقط اشتد ضغطها عليهما حتى برزتا إلى
أمام فى شبه احتقار . وصحيح أنى كنت أتوقع من فتاة غضبت فى أول
محاولة أن تصنع شيئا أكثر من هذا فى ثالث محاولة ، ولكن من الطريقة التى
ضغطت بها شفتيها أحسست أن صبرها قد فرغ وأن الويل له لو حاول مرة
أخرى .

وحاول ، اقترب منها كثيرا وكادت السلسلة تنقطع فى أصابعه وهو
يهمس بسرعة وفروغ صبر :

— لازم رايحة البيت ؟

وكتمت أنفاسى فى انتظار النتيجة .

وبدا أنه فشل فى هذه المرة الأخيرة أيضا ، لولا .. لولا ذيل الحصان
اللعين فقد لمحتة يهتز ، خيل لى أول الأمر أنه يهتز اهتزازا طبيعيا ولكن أبدا
كان اهتزازة عن عمد وعن سبق إصرار ، وكانت تقول له :
— أبوه .

وفى الحال وقبل أن تغير رأيها قال بسرعة وانتصار :

— فى الجيزة مش كله ؟

وقالت هذه المرة بلسانها وقد انتقل الخجل من وجهها إلى ابتسامتها :
— أيوه .

وكدت أوجه لكمة إلى رأس مندوب العائلة الذى كان واقفا يتفرج على الشارع من خلال النافذة فى بلاهة منقطعة النظر .

ولكنى لم ألبث أنا الآخر أن رحت أتطلع مثله ، وقد تركت جارى العزيز مستغرقا فى المشهد الذى يلور أمامه دون أن ينبس بحرف ووجهه لا يزال يحفل بالنشوة والمتعة !

وحين عدت من رحلة يأسى كانت الأمور قد تطورت بسرعة ، وكان الشاب يحادثها بصوت الواثق من نفسه .. بصوت الرجل الظافر حين يهتك حجب الخجل عن أنشائه فى إصرار .

وكانت قد تركت يد الأخ الأصغر وراحت يدها اليسرى تقضم أظافر اليمنى وتعبث بها بينما الأخ يحاول أن يجذب يدها ليعود يمسكها بلا فائدة ، وكان ذيل حصانها يهتز باستمرار اهتزازات أفقية ورأسية وبيضاوية ودائرية ، وأحيانا يرتعش .. فقط يرتعش ، شعراته المنضمة إلى بعضها فى حزمة ترتعش وتتباعد قليلا ثم تعود إلى الانضمام .

ولم أعد كثير الحماس لسماع ما يلور بينهما . جارى كان هو المتحمس ، وكان من فرط حماسه قد مد رقبتة على آخرها حتى كادت تصبح له أذن عند فم الفتى وأخرى عند فم الفتاة .

وحين عدت كان الشاب يتحرك كمن يستعد للنزول ، فقال لها وكل عضلة فى وجهه وذراعيه تنتفض وتشجعها :

— خلاص ؟

واهتز ذيل الحصان اهتزازات رأسية كثيرة متلاحقة .

وعاد وهو يقول :

— أوعى تنسى الثمرة .

واهتز ذيل الحصان اهتزازات أفقية تنفى بها .

— طب كام ؟

وواجهته بعيون مرتعشة وقالت :

— مش ٨٩٩ ؟

ثم سكنت وخجلت وأطرقت وبسرعة عادت تقول :

— ٨٩٩٥٩٢

وتهلل وجهه فرحا وكاد يعانقها قائلا :

— برافو ! إيه ده ؟ دا انت هاليله .. ح تكلمينى امتى ؟!

— يمكن بكره .

— لأ النهارده .

— أما اشوف .

— النهارده .

— طب النهارده .

وخيل إلى أنه يكاد لولا الناس يقبلها ، بل لم أستبعد أن يفعلها فقد كان واضحاً أنهما لا يحسان كثيراً بكل ما حولهما .

وقال الشاب هامسا :

— بس حاسبى ، أخويا صوته شبيهى تمام .. أوعى تغلطى فيه ابقى

أتأكدى انى أنا الى برد .

— أتأكد ازاي ؟

— لما اقول انا أحمد ردى .

— اسمك أحمد .

— أيوه . وانتى ؟!

وأطرقت وارترفع ذيل الحصان فى الهواء كثيرا وكأنها ترفع راية
النجبل ، وغمغمت باسم لا يمكن أن يسمعه أحد ولكن الولد لقطه
وسمعه ، عرفت هذا حين قال :

— اسمك حلو قوى .

ثم أردف بجراحة :

— زيك .

وسحب جارى رقبتة الممتدة بسرعة وكأنما لسعته ولعة سيجارة أو
كأنما أحس أن الشاب يغزله هو ، غير أنه لم يلبث أن أعاد رأسه إلى وضعه
فى الحال حتى لا تفوته كلمة .

وكان الأوتويس يستعد للوقوف فى محطة الجامعة وكان الشاب هو
الآخر يستعد للنزول ، وقبل أن يأخذ طريقه إلى الباب همس :

— لولا المحاضرة مهمة كنت وصلتك . خلاص ؟

— خلاص .

— النهاردة ؟

— النهاردة .

— فاكده الثمرة ؟

— مش ح انسأها .

— طب كام ؟

وحجبت من نفسى وأنا أحاول أن أنافس الفتاة وأجهد ذاكرتى
لأنذاكر الرقم ، ولكنى فشلت .

وقالت الفتاة بسرعة وكأنها جهاز تسجيل :

— مش ٨٩٩٥٩٢

وقال الشاب في انبهار :

— برافو ! أنا ح اقع طول النهار جنب التليفون .. أوريفوار .

وتدفقت الدماء إلى وجنتيها ترد .

وهبط الشاب وبشعاع واحد من عينيها ودعته واطمأنت على جمال مشيته ، ثم عادت يدها تتسرب في وهن وهيام وتسمح ليد الأخ الأصغر أن تقبض عليها وتفعل بها ما تشاء .

ولست أدري كيف أدركت وهي في قمة حالتها هذه أن محطتها هي التالية ، فقد وجدتها بعد قليل تجذب يد أخيها وتأخذ طريقها إلى الباب . وما كاد جسدها النحيل يختفي في الكتلة البشرية المتراحمة قرب الباب حتى أفاق جارى من نشوته في الحال ، وما لبث أن ارتفع صوته وراح يضرب كفها بكف وينظر إلى بقية الركاب وكأئما يستنجد بهم ويشهدهم ، ويقول في غضب حقيقي :

— أما كلام فارغ صحيح وقلة أدب ! البلد خلاص باظت .. انفلت عيارهم .. إيه ده ؟ لازم يوقفوا في كل أوتويس عسكرى من بوليس الآداب ، لازم يقاومهم زى ما يقاوموا النشالين . دى مسخرة دى .. دانا شايفه بعينى ييمد إيده عليها . مش كده يا أستاذ ؟ والله لولانا كان مد إيده عليها وهي ساكنة . دا إجرام ده .. مفيش بوظان بعد كده . دانا سامعه بودنى بيديها غمرة تليفونه .. بودنى . كده واللا لأ يا محترم ؟ كده واللا لأ ؟ وكل ده في محطة واحدة ، دا لازم القيامة ح تقوم ، والله يمكن قامت فعلا .. لازم القيامة قامت !

شيخوخة بدون جنون

في صباح كهذا مات عم محمد .
والذى ضايقتنى أن كل الناس كانوا يأخذون خبر موته على أنه مسألة مفروغ منها ، مسألة لا تحتل بكاء ولا تأثرا أو حتى مصمصه شفاه .
يومها بدأت العمل بالتصديق على شهادات الميلاد .. وكل يوم كنت أبدأ عملى بالتوقيع على هذه الشهادات حتى يصبح المولود من هؤلاء مواطنار رسميا معترفا به من الدولة . والواقع أن عملى كمفتش صحة طالما ذكرنى بسيدنا رضوان ، فإذا كان عمله هو حراسة الآخرة فلا أحد يدخل فيها إلا بإذنه ولا أحد يغادرها إلا بتصريح منه ، فأنا الآخر أحرس الدنيا لا أدخل فيها أحد ولا يقيد وارد ومولود إلا بإمضائى ، ولا يعتبر الواحد قد خرج من الدنيا ومات إلا إذا وافقت أنا على هذا . كنت أبدأ باعتماد الشهادات ، ثم يقف سرب طويل من الأمهات أمامى لأكشف على أذرع أطفالهن وأرى إن كان التطعيم قد نجح أم لا .. نفس الأطفال الذين كانوا من فترة لا تتجاوز سنهم الأربعين يوما مجرد شهادات ميلاد ، الآن أصبح لهم عمر وبدأت لهم مشاكل .

والحق أنى كنت رغم مضايقات العمل الكثيرة أحس بنشوة وأنا أزاول عملية « المناظرة » تلك . الأطفال كلهم صغار وفى عمر واحد كأنهم باقة من أزهار الفل الصغيرة السن أشمها كل صباح ، كلهم صغار وكلهم حلون . وصرائحهم مهما علا فهو رقيق لا يؤذى السمع ، وأيديهم بضعة صغيرة . وأظافرهم دقيقة تحب أن تقبلها ، ورفساتهم فيها كل نزق الحياة

وروعتها . والأمهات — أمهاتهم — كلهن أيضا حديثات الزواج وصغيرات ، وكلهن فرحات بأطفالهن مبالغات في الحرص عليهم ولفهم في سبع لفائف ، قادمات لا بد من الصباح الباكر إلى مكتب الصحة وقد تجمعن واردين أحسن ما لديهن ، وخططن حواجبين وتكحلن ، ووجوههن صابحة تلمع بالنظافة ، وكلامهن صاف لا ضغائن ولا نقار ولا خناق ولكنه أنثوى عذب فيه كل دلع المصريات المؤدب الذى لا يزيد عن الحد ، وفيه كل خجلهن .

يقف الطابور أمامى وعلى ذراع كل أم صغيرة طفل صغير ، ولا يستقيم الطابور أبدا فكل واحدة تنخلع منه لتختلس النظر إلى ملابس الأخرى أو لتقارن بين ابنها اسم الله عليه وحجمه وسمته وابن التى أمامها أو خلفها .. مقارنة لا تحمل سوى حب الاستطلاع ووالله ليس فيها حسد ، ومع هذا فكل واحدة تحاول إخفاء ابنها عن الأخرى مخافة العين ، فتزيد من عدد اللفائف وتحيط عنقه الأبيض بالأحجية وأسنان الذئاب ، ولا بد أنها حين تعود إلى البيت ترقيه وتبخره . وحين تصل الواحدة أمامى ترتبك وهى تحاول أن تستخرج اليد الدقيقة من الكم الدقيق ، وكم هو جميل ذلك الكم — ويبدو أن كل شيء صغير جميل — ترتبك وهى تستخرج الذراع .. ذراع طولها طول الإصبع ولكنها مشاكسة وقبضتها مضمومة فى إصرار وكأنما تتوعد الدنيا وتحداها ، ويرتفع الصراخ .. صراخ هذه المرة غاضب أحمر وحمقه حبيب ، وكم كان يؤلمنى الجرح الحادث من التطعيم ، الجرح البشع السخيف الذى يشوه البشرة الناعمة البضة .

ويتهى الطابور وتتهى المناظرة ويخف ازدحام المكتب ، وتخفى أصوات النساء بكل ألوانها ولهجاتها ونبراتهما لتبدأ ضجة أخرى تعلو وتعلو .. ضجة ليس فيها أنوثة النساء ولا رجولة الرجال ، ضجة الفتيان الصغار والفتيات الذين كانوا من سنين قليلة مجرد أطفال على أذرع أمهاتهم فى طابور المناظرة ، ولكنهم قادمون على أرجلهم هذه المرة وبأنفسهم . إذ هم التلامذة الذين يربلون شهادات من المكتب لتقبلهم المدارس ، والعمال الصغار والعاملات الذين جاءوا لإقرار أن سنهم تزيد على الاثنى عشر عاما لينطبق عليهم قانون تشغيل الأحداث وبهذا يمكنهم أن يبدءوا معركة أكل العيش بعرق الجبين . وطابور هؤلاء لا ضجة فيه ولا صخب ، فهم يقفون صامتين مستغربين عيونهم تحلق فى الناس والأشياء بدهشة وذ هول ، وفى صلورهم خشوع الداخلى إلى عالم ثان مجهول .

وقبل أن يتهى طابورهم تكون ثمة ضجة أخرى قد بدأت تتجمع فى الخارج ، ضجة فيها زعيق وعصية وأيمانان مغلفة وكلمات مكتومة تتناثر عن المظلم والعدل والإنسانية والحكومة والوقت الضائع ، ضجة الرجال .. ضجة لا تبدأ حتى بعد أن يوقفهم التومرجى طابورا وتنكمش قبضته الواسعة على النفحات الضعيلة التى يجود بها البعض ، ويبرز رأسه مئات المرات وهو يؤكد لهم أن كله بالدور وأنهم حتما سيأخذون الإجازات التى يربلوها وسينجحون بإذن الله فى الكشف الطبى ، وأن الدكتور خالد طيب وابن حلال ومزاجه اليوم عال العال ، وعلى العين والرأس أنسارهم ستقدر وحاجاتهم ستقضى بس شوية صبر : والصبر يا اخواننا من الإيمان .

ويدخل طابور الرجال .. طابور عمره ما وقف طابورا . طابور لا تلمح فيه سوى وجوه رجال قلقة تملؤها عجلة السباق المجنون للاستحواذ على الرغبة وانتزاعه من أفواه الآخرين ، وجوه خربشتها الحياة وخشتها وجرحتها .. والجراح لا تزال يقطر منها الدم .

وحين تبلغ الساعة العاشرة أنتهى من عالم الأطفال والفتيان والكبار لأدخل فى عالم آخر عالم الموتى . وللأموات هم الآخرين عالمهم ومشاكلهم ، والميت لا ينتهى أمره أبدا بموته فقد يثير بوفاته أضعاف المشاكل التى أثارها بحياته ، فإذا كان عقاب أهل المولود إذا هربوه إلى الدنيا بلا تصريح أو شهادة ميلاد هو الغرامة جنيه ، فعقاب أهل المتوفى إذا هربوه من الدنيا ودفنوه بلا تصريح هو الحبس والسجن . وإذا كانت الحكومة لا يهتمها كيف يعيش الإنسان طالما هو حى فهى توليه العناية القصوى إذا مات ، والقانون لا يسأل أبدا كيف عاش ولكنه يصرخ بأعلى صوته : كيف مات ؟

وإذا كان المعروف أن بعض الظن إثم فالمشرع يرى أن كل الظن فضيلة عظمى ، فأى إنسان يموت لا بد أنه مات مقتولا ما لم يثبت عكس ذلك وأنا الذى كان يقع على عاتقى إثبات ذلك العكس ، فعلى أن أكشف على كل متوفى وأعائنه وأفحصه وأششم وأرتاب ، حتى إذا ما اطمأن قلبى خمنت السبب التقريبى لوفاته وقيدت ذلك فى الشهادة ، وفى لحظتها فقط يصبح من حق الميت أن يدفن ويتوكل على الله إلى العالم الآخر .

فى الساعة العاشرة كنت أبدأ عملى مع الموت ، وأول من كنت أراهم فى هذا العالم هم صبيان الحانوتية حين يدخلون ويتجههرون أمام المكتب . وكان عم محمد أحد هؤلاء الصبيان ، وأول الأمر لم أكن

أستطيع تمييزه من بينهم فقد كانوا جميعا متشابهين ، وإذا كان الصبيان في العادة لا يمكن أن تتعدى أعمارهم مرحلة الصبا فأولئك كانوا أغرب صبيان ، إذ أن أصغرهم لا بد قد تجاوز الخامسة والستين من زمن طويل . كلهم عواجيز .. وكبرهم ليس من ذلك النوع الصحيح السليم مثل الموظفين المحالين إلى المعاش مثلا أو المتقاعدين الذين تجدهم قد ابيضت شعورهم حقيقة .. وتجد وجوههم فيها تجاعيد وظهورهم قد أصابها الاعوجاج ، ولكنك تحس إذا نظرت إلى الواحد منهم أنه رجل كبير في السن ليس إلا . هناك نوع من الكبر يمسح الكائن الحي ويحيله إلى هيكل هش مرتجف . هذا الوجه الإنساني المتناسق التقاطيع المرتب القسمات يستحيل إلى زيبة .. مجرد زيبة جافة مكرمشة لا يمكن أن تقول أبدا إنها كانت حبة عنب حمراء مملوءة بالدم والحياة في يوم من الأيام .

كان صبيان الخانوتية كلهم من هذا الطراز ، الطويل فيهم قد زاده الكبر نحولا وطولا ، والقصير قد زاده العمر الطويل قصرا .

ودائما وجوههم ضامرة غلبانة ، جلدها خشن مجعد وذقونها بيضاء نابثة ، ونظراتها كليلية والعين الواحدة لا بد مصابة بأكثر من داء . ولهم ملابس « شغل » جلايب قديمة ممزقة قد تختلف أنواعها وألوانها ولكنها قصيرة كجلايب التلامذة لا تتعدى الركبة ، ولهم غطاء رأس واحد .. فلكل منهم عمامة عبارة عن خرقه — أى خرقه — ملتفة حول طاقية — أى طاقية — أو حتى يتعمم بها على اللحم .

كنت ما أكاد أراهم حتى يخالجنى الضحك ، فقد كانوا يبدون بأعمارهم تلك وعاهاتهم وملابسهم وعمائمهم ككائنات غريبة عن عالمنا هبطت لتوها من كوكب آخر كل ما فيه شائخ وعجوز .

وكان عمل هؤلاء « الصبيان » يبدأ من اللحظة التى تطلع فيها روح الميت تماما كالملائكة ، فإذا كان الملائكة يتولون حمل الروح إلى السماء كعائى أو على مراكب الشمس ، فصبيان الخانوتية يتكفلون بالجثة حتى يغيبوها فى باطن الأرض . وقد يبدو للبعض أن عمل الخانوتية أسهل ولكنه فى الواقع أصعب مائة مرة من الصعود بالروح إلى السماء ، وقد يبدو للبعض أنه عمل بغيض والواقع أنه ليس بغيضا ولا يحزنون ، إنه مجرد عمل كغيره من الأعمال . وإذا كنا نعمل فقط من أجل أن نأكل فكل عمل بغيض وكل عمل شغل ، وكل شغل كار وكل كار له أصول .

والأصول أن معلم الخانوت الكبير هو الذى يجلس فى الدكان يتلقى بلاغات الوفاة ويقابل الزبائن ويقبض العربون ، وفى أحوال نادرة يتولى بنفسه غسل الكرام .

أما الصبيان فهم الذين — حين يتم الاتفاق — يذهبون جريا فى جرى إلى بيت المتوفى ، ويتولون معاينته وخلع ملابسه ، ثم يجرى الواحد منهم إلى مكتب الصحة قبل فوات الميعاد ، ثم يعود جاريا فى جرى مستصحبا الطبيب ، ثم يجرى إلى الخانوت .. وإلى الدكان أو العطار ، وبأذره النحيلة يحمل الميت إلى المغسلة ويلبسه الكفن ويسخن الماء ويدلقه ويضع الميت فى النعش ، وقد يساهم بقسط كبير فى حمل المتوفى إلى الجامع والمدافن ، والنعش له ذراع خشبية طويلة غير ممسوحة أو مهذبة تستقر فوق عظمة الطوق العجوز التى لا يغطيها لحم فتكاد تقطعها ، والنعش ثقيل والمسافة دائما طويلة ، وما أفظع الصيف .. والمصيبة الكبرى لو كان الميت من أصحاب الأوزان الثقيلة .

في الساعة العاشرة يدخل على صبيان الحانوتية ويتجمعون أمامي وتمتد أذرعهم الجافة العجوزة ببلاغات الوفاة ، وكل منهم ينافس الآخر في إغرائى ، وكل منهم يحاول أن أذهب معه أولا لأكشف على متوفيه وأصرح له بالدفن لينجز عمله قبل فوات النهار .

و كنت ما أكاد أراهم حتى تنتابنى آلاف المشاعر والرغبات أقواها جميعا رغبتى فى أن أضحك . ولم أكن أدرى بالضبط لماذا يراودنى الضحك .. ولكن شيئا ما فى تركيب صبيان الحانوتية هؤلاء كنت لا أكاد أراه حتى أضحك ، لا من الصبيان ولا من تراحهم ولكن من الحياة نفسها ، ذلك الشيء الرائع الجميل الذى تثبت به بكل ما نملك من قوة ، تلك الحياة أحيانا تضحك . وكنت لا أكتفى بالضحك بل كان لسانى يتحرك ، أحيانا يسخر وأحيانا يتفلسف وأحيانا يقول شيئا تافها لا معنى له . وفى أغلب الأحوال كنت أقول « للصبي » الذى اكتسح زملاءه فى سباق الأيدي وأصبح أمامى مباشرة :

— وانت .. إن شاء الله ح نكتب شهادة وفاتك إمتى ؟

وكان الصبي الشيخ جبثا يضحك .. وضحكهم ليس كضحكنا ، فالواحد منهم ينظر إلى الأرض ويمطر رأسه ويعض على نواجذه وتتسع عيناه قليلا ، ثم تخرج .. هه .. هه . تخرج من حنجرة جافة شائخة لم تعد تقوى حتى على الضحك .

كانوا فى العادة يضحكون كلما سألتهم ذلك السؤال ، غير أنى قلت لأحدهم شيئا كهذا مرة فلم يضحك واستغربت ، فالعادة قد جرت أن يضحك الجميع لكلامى سواء أرادوا أم لم يريدوا إذ كل منهم كان يحاول إرضائى . استغربت وأمعنت النظر فى « الصبي » ، ولم أجده يختلف عن

بقية زملائه في قليل أو كثير .

فقد كانوا جميعا متشابهين كما يتشابه الأطفال حديثو الولادة في طابور المناظرة ، وكأنا يبدأ الناس متشابهين ويستنون متشابهين . كل ما استطعت أن ألاحظه من فرق أن عيني الاثنتين كانت عليهما غشاوة رمادية داكنة كسحب الشتاء . وقلت له :

— مالك ؟!

كان لا بد أن في الأمر شيئا فقال وجهه إلى الأرض :

— ياريت الواحد مات بدلها .

— بدال مين ؟

— مش بنتي تعيش انت .

— ماتت .

— أيوه امبارح .. هب فيها الوابور وماتت في المستشفى .

ولم أصدقه فقد قال هذا دون أن يتغير الانفعال الذي لا يبرح وجهه ، وسألت (معلمه) لأؤكد .. ومعلمه لم يكن رئيسه فقط ولكنه يرأس ثلاثة صبيان شيوخ آخرين من صبيان حانوته . ولم يكن رجلا ضخما له شوارب كعادة (المعلمين) .. كان شابا في الثلاثين حليق اللحية والشارب لونه برونزي قائم وملاحه شديدة الخطورة ، ومع هذا كان فهلويا مضحكا ورث الحانوت حين مات أبوه بعد أن لف ودار ، وتجمعت له كل حداقة اللف والدوران . ومن حر كاته وطريقة ابتسامه تحس أنه ولد لا تفوت عليه الواحدة ، وإذا فاتت فبخطره فقط ورضاه . ورغم صغر سنه فقد كان يرتدى الزى التقليدى للمعلمين الكبار ... طربوشا وجيها فاقع الحمرة ، وجلباها من الصوف تحته قفطان من الحرير

يبدو قبطانه الأسود من فتحة الجلباب ، وحذاء أسود أنيقا ، وفي يده سبحة كهرمان .

سألته فأكد لي أن ما قاله الرجل صحيح وأن ابنته ماتت حقيقة في المستشفى ، وقد أصبح بموتها وحيدا مقطوعا من شجرة .

وصعب على عم محمد جدا وهو واقف وقفته المنحنية المائلة وكأنا تجذبه إلى الأرض قوة عاتية تستعجل اللحظة التي تواريه داخلها ، واقف لا يبكي ولا يدمع ولا يهز رأسه ولا ينهار .
وقلت له :

— معلش يا عم محمد ... البقية في حياتك .

وتبتهت وأنا أقول له هذا إلى أني أحسن فقط أن اسمه عم محمد وأنني لا أعرف اسمه الحقيقي ، ولا أعرف إن كان محمدا أو عليا أو سمعان .. كنت أناديهم جميعا بيا عم محمد ، وكانوا من فرط تواضعهم وأدبهم يردون وكأن لم يعد مهما لدى الواحد منهم أن يمتلك اسما . ودغم عم محمد الكلمات وهو يرد ويقول :

— يا ريت الواحد كان مات بدالها .

ونحن كثيرا ما نسمع تعبيرا كهذا يردده الناس في مناسبات كهده ، ولكننا نأخذنه على محمل التأثر الشديد لا غير ، ولكن طريقة عم محمد في قوله كانت لا تقبل الشك وكان واضحا تماما أنه يعني ما يقول .

ومن يومها بدأت أهتم بالرجل .. بل بدأت أهتم بكل عم المحمدات من أمثاله ، وعرفت السر في كبر السن الذي يبدو كأنه شرط أساسي من شروط العمل كصبي حانوت ، فمعظمهم كانوا فراشين في مدارس أو سعاة في مصالح ، أو عساكر بوليس أو خدمة سايره ، ثم أحيلا إلى المعاش

والاستيداع بعد أن بلغوا السن وقضوا السنوات التى أعقبت الإحالة يزاولون أعمالاً أخرى . ثم حين تنهد قواهم تماماً ويبلغون من العمر أرذله ولا يعودون يضلحون لأى عمل آخر ، لا يصبح أمامهم مجال لكى يأكلوا العيش إلا العمل كصبيان حانوتية .. هذا إذا ساعدهم الحظ وكان هناك محل خال ، إذ هى صنعة لا تتطلب قوة كبيرة وأجرها ضئيل لا يرضى به أحد ، لا يرضى به إلا عجوز على شفا الموت ضعفاً أو جوعاً .

ومع هذا .. ومع درجات العمر التى بلغوها .. وفى تلك السن التى لا يستطيع العجوز فيها أن يفعل شيئاً إلا أن يستلقى فوق فراشه وينتظر الموت ، مع هذا فما أكثر ما كانوا يتعبون ويشقون .
وعشرات الرحلات قطعتها مع عم محمد .

وقبل أن تبدأ الرحلة لابد أن تحدث المسرحية التى تتكرر كل أسبوع .. فعم محمد مستعجل ويريد أن ينتهى من أخذ تصريح الدفن بسرعة ليتفرغ لغيره من المشاكل ، وليرضى المعلم ويريه كأى صبي شطارته . ولهذا فهو لا يريد أن أكشف على المتوفى لأن معنى الكشف أن أذهب إلى بيته والرحلة تستغرق وقتاً طويلاً . هو يريدنى أن أمضى له التصريح ونحن فى المكتب ، ولكن الأوامر هى الأوامر وعلى أن أكشف على المتوفى قبل التصريح . ويتحمس عم محمد جداً وهو يقسم بأغلظ الأيمان أن الوفاة طبيعية وألا جناية هناك ولا شبهة وأنه بنفسه قد خلع ملابس المتوفى وفحصه وجذب شعره وحملق فى عينيه وتحسس عظامه ، وأنه لا يريد سوى راحتى فقط . وأهز له رأسى علامة الرضى فيهز رأسه علامة اليأس ، ويجرى أمامى ويقول :

— على كيفك يا ييه .. اتفضل ..

ونمشي قليلا ثم يتوقف عم محمد ويعود يقول :

— والله يا ييه دا راجل كبير فى السن وما فيه إلا شيخوخة بلدون .

جنون .

و « شيخوخة بلدون جنون » تعبير اصطلاح على إطلاقه على سبب الوفاة حين يكون المتوفى كبير السن وليست هناك علامات مرضية أخرى تصلح سببا للوفاة . وتضاف كلمة « بلدون جنون » لأسباب قانونية تتعلق بميراث المتوفى والمشاكل التى تنشأ بين الورثة حوله ، هذا إذا كان قد خلف ثروة فعلا وعقارا .

وهذا الاصطلاح قد شاع وانتشر بين أطباء الصحة وموظفى المكاتب والمحاماة للدرجة أنه لم يعد من المستغرب أن يقترحها عم محمد كسبب للوفاة ...

يتوقف عم محمد ويحاول محاولته الأخيرة تلك ، ولا يجد لها صدق عندى فيعود يجرى ويسبقنى ليرينى الطريق إلى بيت المتوفى ، والمنطقة آهلة بالسكان والبيوت والذباب وكل شيء قد يخطر على البال ، الناس أكثر من البيوت .. والبيوت أكثر من الفضاء .. والذباب بمعدل مليون ذبابة لكل قاطن .. والأشياء مكدسة مزدحمة وكأنما كومها فوق بعضها مستعجل لا وقت لديه .

وعم محمد رجلاه رفيعتان مقوستان وعرقه يسيل ، وحجمه ضئيل أصغر من فرد عجوز يكافح ليلحق خطوى ، ويكافح ويكافح ليصبح أمامى ، ويزيغ الناس حتى يدبرلى مكانا محترما أمر فيه ، ويصنع من نفسه عسكري مرور ويوقف عربات الكارو ، ويأمر باعة الخضار بالكف عن

تشويحات الأيدي والزريق حتى يمر « اليه » ، ويلهث ويحدثنى
ويسلبنى ، ويلعن الخلق والزحمة ومن يخالفون أوامره ولا يفسحون
الطريق ، ويقول إن الخير زال وأيام زمان كان الموتى على قفا من يشيل
وكانت الأشياء معدن ، ويلهث وأسأله وقد بدأت أنا الآخر أهث عن
المتوفى وبيته وهل لا يزال بعيدا ، فيقول خطوتين بس . وأخطو عشرات
الآلاف من الخطوات ولا يظهر بيت ولا ميت ، وموكننا الصغير يدلف
من شارع إلى زقاق ومن زقاق إلى خندق وجارة .. أسوأ موكب ، ما أن
يرانا الناس حتى ترتفع الهمسات :

— يا فتاح يا عليم ع الصبح .. يا ترى مين مات النهارده ؟
وعم محمد يجرى أمامى ومن خلفى وعلى جانبي ، خائف خوف
الموت أن أزهد وأزهق فأؤجل الكشف إلى ما بعد الظهر أو الغد وتكون
الكارثة .

وأخيرا جدا نصل إلى بيت المتوفى ، وقبل أن نصل إليه يستميت عم
محمد وهو يأخذ ثوبه فى أسنانه ويضاعف من جريه ليسبقنى ويوسع
السكة .

وما أكاد أضغ قدمى على الباب حتى تلى علة أصوات ينخلع لها
قلبي ، ثم يرتفع تعديد : جالك الحكيم يا ضنايا . وكأن القدام هو
عزرائيل .. ولكن عم محمد لا يأخذ باله من هذا ، يرتفع صوته صارخا
على ضعفه :

— وسعى يا بنت انتى وهيه .. اتفضل يا ييه .. ياللا بلاش
لكاعة .. يا خويا النسوان الكثيرة دى بتيجى من أنهى داهيه .. اتفضل
يا ييه .

وتتسلل أكوام السواد والملاءات التي كانت تملأ حجرة البيت ،
تتسلل إلى اليمن وإلى اليسار تنقب في وجه الحكيم وتتأمله وتعلق .
ولا بد أن تأتي اللحظة التي تخلو فيها حجرة المتوفى ولا يبقى معه سوى
القريب وعم محمد وأنا .

فيندفع عم محمد وهو لا يزال يلهث من المشوار والجري ويكشف عن
الميت غطاءه ويقول وكأنه يريد أن يثبت لي براءته ، وأنه كان على حق في
أن الوفاة طبيعية :

— أهه يا ييه .. زى الفل اهه .. والله ما فيه جنس حاجه . آدى
صلره اهه ، وآدى بطنه ، وآدى بقه اهه نضيف زى الصينى بعد
غسيله ، وآدى شعره اهه .

ويجذب عم محمد شعر الميت ليرينى أنه لم يمت مسموما ، وإلا لتساقط
الشعر في يده ، يجذب الشعر بقوة وعصية فهو يريد أن يخلص والظهر
اقرب ، ويقول له أهل المتوفى حاسب ! فيقول :
— حاضر .. أحاسب غصب عن عين أبويا أحاسب . وآدى
الرجلين يا سعادة اليه .

ويرفع ساق الميت ويقول :

— والله ما فى الا شيخوخة بلون جنون ، وآدى ضهره .
ويحاول عم محمد أن يقلب الميت لأرى ظهره ، ويستعين بالسيدة
والحسين وكل الأولياء ولكنه لا يستطيع ، فيكش فيه المعلم ويهب قائلاً :
— اوع يا شيخ ... جك تربة تلمك .

ولكن عم محمد لا يتنحى بل يظل في مكانه يساعد معلمه في قلب
الميت ولو برفع ساق أو عدل يد .

وحين ينتهى الكشف ونخرج تبقى أنظار عم محمد معلقة بملاحي
وكأنه ينتظر نتيجة امتحان ، ولا يتنفس الصعداء إلا حين أمضى التصريح
فيأخذه وكأنه نعمة هبطت لتوها من السماء .. ويعض على نواجذه
وتتسع عيناه وكأنه يتسم ويقول :

— مش برضه شيخوخة بلون جنون يا بيه ؟ . مش قلتلك ؟ . أنا
كنت بس عامل على تعبك .

ثم تنطلق سيقانه المقوسة الرفيعة تجرى وتسبقنى إلى المكتب .
ومرة لمحت في عين عم محمد دمعة .. دمعة صغيرة دقيقة وكأنها آخر
دمعة في حصالة عينيه . وكانت على أثر قلم سريع خاطف ناله من المعلم .
كان قد ارتكب خطأ ما إذ حين ذهبت لأكشف على متوفى لم يكن قد
خلع عنه كل ملابسه . وقبل أن ألوم المعلم على هذا الإهمال أو أؤنبه كان
هو قد هوى بكفه على صدغ عم محمد فى صفة سريعة خاطفة وكأنما
ليقرر بها أن الذنب ذنب صبيه ، ويرينى أن العقاب قد أنزل ولم يعد هناك داع
لكلمة لوم واحدة منى . وتولانى غضب جامح .. أما عم محمد فالعجيب
أنه لم يثر ولم يحتاج ولم يترك الغرفة ، بل وقف ويده مثبتة فوق مكان الصفة
وعلى وجهه إحساس بالذنب ، تماما كما يفعل أى صبي صغير حين يخطئ
ويعاقبه المعلم .

وذهبت إلى المكتب مرة فوجدت حشدا كبيرا من العم محمدات .
وكانوا يبلون إذا وقفوا معا وسط ما يحفل به المكتب من نساء صغيرات
وأطفال ورجال ، يبلون كقبضة من قش الأرز فى وسط باقة من
الزهور . وكانوا إذا وقفوا معا لا يتحدثون كما تفعل جماعات الناس بل
يقفون ساكتين صامتتين وكأنهم من طول ما تكلموا فى أعمارهم الطويلة
قد ملوا الكلام .

واستغربت إذ لم أتعود وجودهم في جماعات كبيرة كتلك . وما إن رآني المعلم الشاب حتى أقبل هاشا باشا متهلل الوجه مصباحا بالفل والياسمين والقشطة ومقبلا الأيادي ، ولم يسلم الأمر من ضحكة عريضة جوفاء ردها ، ثم بدا عليه تأثر مفاجئ وضم قبضته على بطنه وقال :
— اسكت يا شيخ .

— إيه ؟

— مش الراجل مات .

— راجل مين ؟

قلتها وأنا أكاد أضحك ، فقد كان من عادة المعلم أن يحدثني عن أشياء لا أعرفها وكأني أعرفها ، ولكنه قال :

— الصبي بتاعنا ..

— عم محمد ؟ ..

— تعيش انت .

وفي الحال اتخذت سيماه طابع العمل وقال :

— بس والنبى يا دكتور تخلص لنا تصریح الدفن بتاعه بسرعة .. انت

عارف .. الدنيا صيف وده راجل عضمه كبير ..

وضحكت فلم أصدق أن عم محمد مات حقيقة ، فقد كان معي بالأمس نجري أمامي وخلفي وعلى جانبي ، ثم لما تصورته ميتا ضحكت لا لأذ . لم أحزن ولكن لأن هناك نوبات من الحزن تأتي على هيئة ضحكات . ثم إن معلمه كان يستعجل تصریح دفنه بنفس الطريقة التي يستعجل بها نصارى الزبائن ! .

وقال المعلم وهو يستحشني :

— هيه يا بيه .. قلت إيه ؟

فقلت :

— بقى الراجل يعملها ويموت .

فقال المعلم :

— أيوم .. ولو ماربنا بعت لنا صبي غيره كانت بقت وقعه النهارده ..

— صبي غيره ؟ .

— أهه .. تعال يا جندى .

وجاء جندى .. عجوز آخر فى السن ولكنه لم يكن قد ارتدى الزى
الرسمى بعد ، فعلى رأسه كان ثمة طربوش قديم قد انهار وتكوم فى كتلة
لا شكل لها ولا معنى . .

وقال المعلم :

— امضى لنا التصريح بقى يا بيه .

فقلت له :

— لا .. أنا لازم اروح اشوفه .

فعاد يقول :

— يا بيه هو غريب ؟ .. ما انت عارفه .. أنا بس عامل على تعبك .

هو انا ح اضحك عليك ؟ داراجل مسن ، صرح لنا من هنا وخلص ..
شيخوخة بلون جنون والله ما فى غيرها .

وتطوع أكثر من صبي من صبيان الحانوتية والواقفين بالرجاء
والإلحاف ومساندة المعلم . كانوا زملاء الفقيد قد جاءوا بلا ريب
تدفعهم الرغبة لعمل شئ للزميل الراحل .

غير أنى أصررت على الذهاب ولو لألقى على عم محمد نظرة الوداع ،
فللرفقة حق ولقد كان رفيق الطريق .

وبعد قليل غادرنا المكتب للكشف على عم محمد .

وكان موكبنا رهيبا .. كنت فى المقدمة وبجوارى المعلم وقد رفع ذيل
جلبابه بيد وراح يتحدثنى بيده الأخرى وبأصابعه وهزات رأسه عن
« خرجة » عم محمد وكيف سيخرجه هو على نفقته ، مع أن الوقت غير
ملائم والدنيا على كف عفريت .

وخلفنا كانت جمهرة العم محمداً .

وكان الموكب رهيبا إلى الدرجة التى كانت توقف الحركة فى
الشارع ، وتدفع الناس إلى التساؤل عن الميت الهائل الذى يتطلب
الكشف عليه هذا العدد العديد من الحانوتية وصبيانهم .

وكان البيت الذى يقطن فيه عم محمد بعيدا فى سفح الجبل ، وعبرة
عن حوش واسع فى وسطه كومة هائلة من الزباله وحولها حجرات أكثرها
منهار ، ومع هذا فلكل حجرة سكان وقاطنون .

ولم يثر مقدمنا ضجة ولا صراخا ولا صخبا ، كان كل شىء هادئا
وكأن لم يمت أحد . كل ما حدث أن بعض الكلاب هببت فصرخ فيها
المعلم وأبعدها .

وكانت الحجرة مظلمة لا يضيئها غير النور الداخلى من الباب ، وكان
عم محمد راقدنا بجوار الحائط ومغطى بأوراق جرائد ألمانية قديمة لا يدرى
أحد كيف جاءت إلى هذا المكان .

وزعق المعلم فى « الصبى » الجديد :

— اكشف يا جدع .

وانحنى الصبى الشيخ بسرعة وأزاح الجرائد ويده تهتز وترتعش ..
وبدا عم محمد ممددا وميتا ووجهه إلى الحائط كالتلميذ المذنب . كان ممددا
بنفس ملابس الشغل وجسمه الصغير يكاد يتكور على نفسه ، وقدماه
اللتان طالما لفتا الدنيا جريا فى جرى كانتا مستكيتين وعليهما حذاء سميك
من الطين الجاف والتراب .

وقال المعلم :

— أهه .. مافيش حاجة بتاتا .. اقلب يا جدع .. اقلبه على ظهره
وريه للبيه .

ومد الصبى العجوز بديه وحاول قلب الجثة ففشل .

* * *

وحيثذ رأيت وكأن عم محمد ينبرى له من ميتته ويتفض مستديرا
بطريقته الخفيفة النشطة :

— أوعى يا جدع جك تربه تلمك .. أنا هه .. اتفضل يا بيه .. أنا
الى اقلب نفسى .. بس كان لزومه إيه تعبك يا بيه ؟ . أنا هه نضيف زى
الفل ما فياش صنف حاجة .. آدى يا سيدى رجليه أهه .

ومد عم محمد رجليه ، فبدتا كجريدتين رفيعتين من جرايد النخل وقد
نزع عنهما السعف .

— وآدى جسمى أهه .

وخلع ملاپسه بسرعة ، ووقف فى وسط الحجرة عاريا كما ولدته أمه ،
وبدا جسده جافا ناشفا ليس فيه درهم واحد من اللحم . ويبدو أن
الإنسان كالنبات يولد بذرة ويظل ينمو وتخضر أوراقه ، ثم يزدهر فى شبابه
وتتفتح وروده ، ثم ينضج وتتكون له الثمار فى الرجونة ، وبعد ما يخلف
ويؤدى رسالته فى الحياة ويصبح عجوزا يحدث له ما يحدث للنبات بعد

قطف ثماره فيجف وتبرز عظامه ويتناقص لحمه ، حتى ينتهى إلى شىء
كعود الفطن الجاف بعد جمعه .. ومضى عم نحمد يقول وهو يستدير
ليستعرض جسده :

— مش قتللك يا بيه ؟ . عضمه كبيره ، وآدى ذراعه أهه ..
و حاول عم محمد جذب ذراعه فلم يستطع ، اذ يبدو أن الروماتيزم
الذى كان يشكو لى منه دائما قد جففها تماما وجدها ، فتركها عم محمد
يائسا وانتقل إلى رأسه :
و آدى الراس .

رأس قد صغر الكبير حجمه حتى استحال إلى جمجمة كروية صغيرة ،
فكها الأسفل يلتوى إلى أعلى والأعلى يلتوى إلى أسفل ، وملاحظها كلها
تكاد تنشفط داخل الفم .

— وآدى الشعر اهه .
وجذب عم محمد بكلتا يديه الشعرات القليلة المتبقية فى رأسه .
— وآدى رجليه اهه .

و مد أقداما شاحبة جدا وكأنها ماتت من عشرات السنين .
ويبدو أن المجهود الذى بذله فى عرض نفسه قد أنهكه ، فقد قال وهو
يعود إلى رقدته ويعود إلى مواجهة الحائط :

— كنت ريحت نفسك يا بيه .. ما قتللك .. والله ما فى
إلا شيخوخة بدون جنون ..

* * *

وعادت إلى نفسى على قول المعلم :

... هيه .. قلت إيه ؟

فقلت له :

— غسل .

وفى الحال بدأت حركة هائلة فى الحجرة ، وخلع المعلم جلبابه الصوف ووقف كالقبطان تصدر منه الأوامر متتابعة .

وبعد قليل كان عم محمد قد استقر فى النعش ، وكان النعش محمولا على أكتاف الزملاء « الترية » ، وكانوا يتمايلون به وهم يغادرون البيت بلا صوت واحد يلى ويودع عم محمد .. أو صرخة .

وما كاد المعلم يطمئن إلى أن كل شىء قد انتهى وأنه قد قام بواجبه وأخرج صبيه على خير ما يرام ، حتى فوجئت به يتراجع ويجلس على قرافيصه بجوار الحائط ويخفى رأسه بين ركبتيه ويخرج صوته خشنا مكتوما يتخلله البكاء :

— يا ولداه يا عم محمد .

وبعد أن ذهبت نوبة بكائه رفع رأسه وقال بعينين محمرتين وقد تذكر الرسميات :

— مش مضيت له التصريح يا دكتور ؟ .

وهززت رأسى فعاد يقول :

— مش برضه .. ؟

فقلت :

— أيوه .. شيخوخة .

ومسح دموعا تكونت فى عينيه وهو يقول .:

— بلون جنون .

فأجبتة :

— أيوه .. بلون جنون .

طبلية من السماء

أن ترى إنسانا يجرى في شارع من شوارع منية النصر فذلك حادث ،
فالناس هناك نادرا ما يجرون .. ولماذا يجرون. وليس في القرية ما يستحق
الجرى ؟ المواعيد لا تحسب بالدقائق والثواني .. والقطارات تتحرك في
بطء الشمس . قطار إذا طلعت .. وآخر حين تتوسط السماء .. ومع
مغيبها يفوت واحد . ولا ضجيج هناك يثير الأعصاب ويدفع إلى التهور
والسرعة . كل شيء بطيء هادئ عاقل ، وكل شيء قانع مستمتع ببطئه
وهلوئه ذاك ، والسرعة غير مطلوبة أبدا والعجلة من الشيطان .
أن ترى واحدا يجرى في منية النصر فذلك حادث .. وكأنه صوت
السرينة في عربة بوليس النجدة فلا بد أن وراء جريه أمرا مثيرا . وما أجمل
أن يحدث في البلدة المهادنة البطيئة أمر مثير !

وفي يوم الجمعة ذاك لم يكن واحد فقط هو الذى يجرى في منية النصر ،
الواقع أنه كانت هناك حركة جري واسعة النطاق . ولم يكن أحد يعرف
السبب .. فالشوارع والأزقة تسبح في هدوئها الأبدى ويتنابها ذلك
الركود الذى يستتب في العادة بعد صلاة الجمعة ، حيث ترش أرضها بماء
الغسيل المختلط بالرغوة والزهرة ورائحة الصابون الرخيص ، وحيث
النسوة في الداخل مشغولات بإعداد الغداء والرجال في الخارج يتسكعون
ويتصعلكون إلى أن ينتهى إعداد الغداء .. وإذا بهذا الهلواء كله يتعكر
بسيقان ضخمة غليظة تجرى وتمز اليبوت ، ويمر الجارى بجماعة جالسة
أمام بيت فلا ينسى وهو لا يجرى أن يلقي السلام ، ويرد الجالسون

سلامه ويحاولون سؤاله عن سبب الجرى ولكنه يكون قد نفذ . حينئذ يقفون ويحاولون معرفة السبب وطبعا لا يستطيعون ، وحينئذ يدفعهم حب الاستطلاع إلى المشى ثم يقترح أحدهم الإسراع فيسرعون ويمجدون أنفسهم آخر الأمر يجرّون ، ولا ينسون أن يلقوا السلام على جماعات الجالسين فتقف الجماعات ولا تلبث أن تجد نفسها تجري هي الأخرى . غير أنه مهما غمض السبب فلا بد في النهاية أن يعرف . ولا بد أن يتجمع الناس في مكان الحادث بعد قليل .. فالبلدة صغيرة وألف من يدلك ، وقبل أن تلهث تكون قد قطعتها طولا وعرضا .

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى كان قد تجمع عند الجرن عدد كبير من الناس .. وكل من في استطاعته الجرى قد وصل ، ولم يبق مبعثرا في الطريق غير كبار السن والعواجيز الذين آثروا التمشى حتى يبلوا كبارا في السن ، وحتى يبلوا ثمة فرق بينهم وبين الشبان الصغار والعيال . ولكنهم كانوا أيضا يسرعون وفي نيتهم أن يصلوا قبل فوات الأوان وقبل أن يصبح الحادث خبرا .

ومنية النصر كغيرها من بلاد الله الواسعة تشاءم من يوم الجمعة ، وأى حادث يقع فيه لا بد أنه كارثة أكيدة .. ليس هذا فقط ، بل إنهم مبالغة في التشاؤم لا يجرعون على القيام بأى عمل في هذا اليوم بالذات مخافة أن يصيبه الفشل ، وعلى هذا تؤجل الأعمال كلها إلى يوم السبت . وإذا سألت لماذا هذا التشاؤم قالوا لك لأن في يوم الجمعة ساعة نحس . ولكن الظاهر أن السبب الحقيقي ليس هذا .. والظاهر أن ساعة النحس هذه حجة ليس إلا ووسيلة يستطيع بها الفلاحون أن يؤجلوا عمل الجمعة إلى السبت وبهذا يصبح يوم الجمعة راحة ، ولكن الراحة كلمة بشعة عند

الفلاحين . الراحة إهانة لخشونتهم وقدرتهم الحارقة على العمل التى لا تكل . الراحة لا يحتاجها إلا أبناء المدن فقط وذوو اللحوم الطرية الذين يعملون فى الظل ومع هذا يلهثون . الراحة الأسبوعية بدعة ، إذن ألا يكون يوم الجمعة شؤما وفيه ساعة نحس ، وحيثذ فقط يكون من الجائز أن تؤجل الأعمال لتتم فى يوم السبت .

ولهذا كان الناس يتوقعون أن يكون سبب حركة الجرى هذه مصيبة كبرى حلت بأحد . ولكنهم حين يصلون إلى الجرن لا يجلبون بهيمة فطسى ولا حريقا قائما ولا رجلا يذبح رجلا .

كانوا يجلبون الشيخ عليا واقفا فى وسط الجرن وهو فى حالة غضب شديد وقد خلع جلبابه وعمامته وأمسك بعصاه وراح يهزها بعنف . وحين يسألون عن الحكاية يقول لهم السابقون :

— الشيخ ح يكفر .

وكان الناس حيثذ يضحكون فلا ريب أن تلك نادرة أخرى من نوادر الشيخ على الذى كان هو نفسه نادرة . فرأسه كبير كرأس الحمار ، وعيناه واسعتان مستديرتان كعيون أم قويق ، وله فى ركن كل عين جلطة دم . وصوته إذا تكلم يخرج مبوحا مكتوما كصوت الوابور إذا انكمم نفسه وشحر . ولم تكن له ابتسامة فقد كان لا يتسم أبدا . إذا انبسط ونادرا ما ينبسط قهقهه ، وإذا لم ينبسط كشر . وكلمة واحدة لا تعجبه يتعكر دمه حتى يستحيل إلى مازوت وينقض على قائلها .. قد ينقض عليه بيده ذات الأصابع الغليظة كالصوامع . أو قد ينقض عليه بعصاه .. وعصاه كان لها عقفة وكانت من خيزران غليظ وكان لها كعب من حديد ، وكان يجيها ويعزها ويسميها الحكمدار .

أرسله أبوه ليتعلم في الأزهر وهناك أخطأ شيخه مرة وقال له : انت بغل . فما كان من الشيخ على إلا أن رد عليه وقال : انت ستين بغل . ولما رفته وعاد إلى منية النصر عمل خطيباً للمسجد وإماماً . ونسي ذات يوم وصلى الجمعة ثلاث ركعات ، ولما حاول المصلون وراءه تنبيهه لعن آباءهم جميعاً وطلق من يومها الإمامة والجامع .. ولأجل خاطرهم طلق الصلاة . وتعلم الكوتشينة وظل يلعبها حتى باع كل ما يملكه ، وحيثذ حلف بالطلاق أن يبطلها . وكان محمد أفندى المدرس بالمدرسة الابتدائية في البندر فاتحاً دكان بقالة في البلدة ، عرض على الشيخ على أن يقف في الدكان ساعات الصباح فقبل ، ولكنه لم يعمل إلا ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع كان محمد أفندى واقفاً أمام الدكان يتصبب حلاوة طحينية . فقد اكتشف الشيخ على أن محمد أفندى يضع قطعة حديد في الميزان ليظب وقال له الشيخ على :

— انت حرامى .

وما كاد محمد أفندى يقول :

— لايمنها يا شيخ على واسكت وخليك تاكل عيش .

حتى قذفه الشيخ على بكتلة الحلاوة الطحينية .. ومن يومها لم يجرؤ أحد على أن يعهد للشيخ على بعمل . وحتى لو كان قد جرؤ فالشيخ على نفسه لم يكن متحمساً لأى عمل .

وكان هذا الشيخ على قبيحاً .. ضيق الصدر لا عمل له ، ومع هذا لم يكن في البلدة من يكرهه .. كان الجميع يحبونه ويعشقونه ويتداولون نوادره . وألذ ساعة هي تلك التي يجلسون فيها حوله يستفزون ليغضب ، وغضبه كان يضحكهم . كان إذا غضب واربدت ملامحه وانكم

صوته .. كان الواحد منهم لا يتمالك نفسه ويموت من الضحك ..
ويظنون يستفزون ويظل هو يغضب .. ويضحكون حتى ينفض
المجلس . وعلى كل لسان كلمة : الله يجازيك يا شيخ على . ويتركونه
وحيدا ليصب جام غضبه على « أبو أحمد » فقد كان يسمى الفقر « أبو
أحمد » وكان يعتبره علوه الوحيد لللود .. ويتحدث عنه كما لو كان
آدميا موجودا له اسم ولحم ودم . وكانت مجالسه تبدأ حين يسأله
أحدهم :

— أبو أحمد عمل فيك إيه يا شيخ على النهارده ؟ .

وكان الشيخ على يغضب حينئذ غضبا حقيقيا ، ذلك لأنه لم يكن يحب
أن يحدثه أحد عن فقره .. إذا تحدث هو كان بها . أما أن يتحدث الناس
عن فقره فذلك شيء يدفع إلى الغضب .. فالشيخ على كان خجولا جدا
رغم قسوة ملامحه وكلامه ، وكان يفضل أن يبقى أياما بلا دخان على أن
يطلب من أحدهم أن يلف له سيجارة . وكان يحمل معه على اللوام إبرة
وفتلة لرتق جلبابه إذا تمزق ، وإذا اتسخ ذهب بعيدا عن البلدة وغسل ثيابه
وظل عاريا حتى تحف . ولذلك كانت عمامته الوحيدة أنظف عمامة في
البلدة .

كان حريا إذن بأهل منية النصر أن يضحكوا من هذه النادرة
الجديدة .. ولكن الضحكات كانت تموت في الحال والألسن تتراجع خائفة
إلى الحلق وكأثما لدغتها عقارب . فكلمة الكفر كلمة بشعة ، والبلدة
مثل غيرها من البلاد تحيا في أمان الله فيها كل ما تحفل به سائر البلاد : الناس
الطيبون الذين لا يعرفون إلا أعمالهم ويوتهم ، واللصوص الصغار الذين
يسرقون كيزان الذرة والكبار الذين ينقبون الزرائب ويسحبون البهائم من

أنوفها بالخطاطيف ، والتجار الذين يتاجرون بالمئات وتجار القروش ، والنساء الملبعات غير المعروفات وأولئك المعروفات على نطاق البلدة كلها ، والصادقون والكاذبون والخفراء ، والمرضى والعوانس والصالحون .. فيها كل ما تحفل به سائر البلاد .. ولكن الجميع تجدهم في الجامع إذا أذن المؤذن للصلاة ولا تجد واحدا منهم فاطرا في رمضان . وثمة قوانين مرعية تنظم حياة الكل ويسمونها الأصول ، فلا يتعدى اللص على لص ، ولا يعير أحد أحدا بصنعتة ، ولا يجسر واحد على تحدى الشعور العام . وإذا بالشيخ على يقف ويخاطب الله هكذا بلا إحـم ولا دستور . كانوا يضحكون قليلا ولكنهم ما يكادون يسمعون ما يقوله حتى يتولاهم وجوم .

كان رأسه عاريا وشعره القصير يلمع بالعرق وبالشيب ، والعصا الحكمدار في يمينه وعيناه تنفثان حمما ، وفي وجهه غضب أحـمق شديد ، وكان يقول موجها كلامه إلى السماء :

— انت عايز منى إيه ؟ تقدر تقول لى انت عايز منى إيه ؟ الازهر وسبته عشان خاطر شوية المشايخ اللى عاملين أوصياع الدين . ومراتى وطلقتها . والدار وبعثها . وأبو احمد وسلطته على دونا عن بقية الناس . هو مافيش فى الدنيا دى كلها إلا انى ؟ ما تنزل غضبك يا رب على تشرشل واللا زنهاور .. مش قادر الا على انى ؟ عايز منى إيه دلوقت ؟ المرات اللى فاتت كنت بتجوعنى يوم وباستحمل .. واقول يا واد كأنا فى رمضان وأهو يوم وينفض . المرة دى بقالى ما كلتش من أول امبارح العصر ، وسجاير ممعش سجاير بقالى أسبوع . ومزاج حد الله ما دقته بقالى عشرة أيام ، وانت بتقول فيه فى الجنة غسل نخل وفواكه وأنهار لبن .

ما بتدنيش منهم ليه ؟ . مستنى أما اموت م الجوع علشان ارواح الجنة و آكل من خيرك ؟ لا يا سيدى يفتح الله . احببى النهارده وابقى بعد كده ودينى مطرح ما تودينى . يا اخى ما تبعد عنى أبو احمد ده . ما تبعته أمريكا . هو كان انكتب على ؟ انت بتعذبنى ليه ؟ آنى ما حلتيش إلا الجلالية دى والحكمدار . عايز منى إيه ؟ يا تغدينى دلوقتى حالا يا تاخذنى حداك على طول . ح اتغدينى والا لأ ؟

كان الشيخ على يقول هذا بانفعال رهيب حتى لقد تكوم الزبد فوق فمة ، وطمه العرق ، وامتلاً صوته بمحمد فاض عن حده . وأهل منية النصر واقفون وقلوبهم تكاد تسقط من الرعب . كانوا خائفين أن يسوق الشيخ على فيها ويكفر . ولم يكن هذا فقط مبعث خوفهم فالكلمات التى يقولها الشيخ على خطيرة .. قد تغضب الله سبحانه وتعالى ، وقد تحل بيلدهم من جراء ذلك نقمة تأتى على الأخضر واليابس . كان كلام الشيخ على يهدد البلدة الآمنة كلها وكان لا بد من إسكاته . وعلى هذا بدأ العقلاء يطلقون من بعيد كلمات طيبات يرجون فيها من الشيخ على أن يعود إليه رشده ويسكت ، وترك الشيخ على السماء قليلاً والتفت إليهم :

— أسكت ليه يا بلد دون ؟ أسكت لما اموت م الجوع ؟ أسكت ليه ؟ خافين على بيوتكم ونسوانكم وزرعكم .. الى حداد حاجة يخاف عليها ، إنما أنا مش خايف على حاجة ، إن كان زعلان منى ياخذنى . إنما ودينى وما أعبد ، إن إنيجه حد ياخذنى انشالله يكون عزرائين نفسه لمدشده على راسه الحكمدار . ودينى ما نى ساكت إلا ما بيعت لى مائدة من السما حالا : أنا مش أقل من مريم . هى مهما كانت حرمة إنما أنا راجل . وهى ماكتتشى فقيره إنما أنا ابو احمد طلع دينى . ودينى وما أعبد ما نى ساكت إلا اما بيعت لى حالا مائده .

والتفت الشيخ على إلى السماء وقال :

— هه .. ح تبعها حالا دلوقتى والا ما اخلى ولا أبقي حدايا الا ما ا قوله ؟ مائده حالا . جوز فراخ وطبق عسل نحل و رصة عيش ساخن . على شرط عيش ساخن . واوع تنسى السلطة . ودينى لعادد لغاية عشرة وإن ما نزلت المائدة مانى مخلى ولا مبقى .

ومضى الشيخ على يعد وقلوب منية النصر تعد معه مقدما ، والأعصاب قد بدأت تتوتر وأصبح لا بد من عمل شىء لإيقاف الشيخ على عند حله . واقترح أحدهم أن يلتف جماعة من شباب البلدة الأقوياء حوله ويوقعوه أرضا ويكمنوا فاه ويعطوه علقة لا ينساها .. غير أن نظرة واحدة ألقاها الشيخ على من عينيه المشتعلتين بالغضب المجنون أذابت الاقتراح . فمن المستحيل أن ينالوا الشيخ على قبل أن يخطط هو خبطة أو خبطتين برأس الحكمدار .. وكل شاب قد قدر أن الخبطة ستكون من نصيبه . والذي يهدد بدشدشة رأس عزرائيل كفيل بدشدشة رأس الواحد منهم ، وعلى هذا ذاب الاقتراح .

وقال له أحدهم فى فروغ بال :

— ما انت طول عمرك جعان يا راجل اشمعنى النهارده ؟ .

وأصابته نظرة نارية من الشيخ على وأجابه :

— المرة دى يا عبد الجواد يا معصفر الحكاية طالت .

وزعق فيه آخر :

— طب يا أخى لما انت جعان مش تقول لنا واحنا نوكلك بدل

الكلام الفارغ اللي انت قاعد تقوله ده ؟

وهب فيه الشيخ على :

— آنى أطلب منكم ؟ آنى أشحت منكم يا بلد جعانة ، دا انتو جعائين أكثر منى اقوم اشحت منكم ؟ آنى جأى اطلب منه هو ، وإذا ما ادائيش ح اقدر اعرف شغلى .
وقال له عبد الجواد :

— ما كنت تشتغل يا أخى وتاكل . يخفى وجهك .
وهنا بلغ الغضب بالشيخ على منتهاء وتزربن وراح يهتزو ويصرخ ووزع كلامه بين الجمع المحتشد عن بعد وبين السماء .

— وانت مالك يا عبد الجواد يا بن ست ابوها . مانيش مشتغل .
مش عايز اشتغل . ما بعرفش اشتغل . مش لاق شغل . هو شغلكو ده شغل يا عالم بقر ؟ دا شغلكو ده شغل حمير وآنى مش حمار . آنى ما اقدرش يتقطم وسطى طول النهار ، ما اقدرشى اتعلق فى الغيط زى البهيمة يا بهائم . يلعن أبوكو كللكو مانيش مشتغل . والنبي لو حكمت أموت م الجوع ما اشتغل شغلكو أبدا .

وكان غضبه شديدا إلى الدرجة التى جعلت الناس تضحك بالرغم منها ، وبرغم الموقف الرهيب الذى كانوا فيه .
وانتفض الشيخ على انتفاضة عظيمة وقال :

— هه .. ح اعد لغاية عشرة والنبي ان ما بعث لى مائدة لكافر وعامل ما لا يعمل .

وكان واضحا أن الشيخ على حقيقة لن يتراجع وأنه ينوى أن يلبخ ، ويحدث حيثئذ ما لا تحمد عقباه .

وبدا الشيخ على يعدو وبدأت نقاط العرق تنبت على الجباه ، وأصبح حر الظاهر لا يطاق حتى أن بعضهم تهامس أن النقمة لا بد قد بدأت تحل ،

وأن ذلك الحر الفظيع إن هو إلا مقدمة للحريق الهائل الذى سوف ينشب
ويأتى على كل القمح الواقف والمحصول .

وأخطأ أحدهم مرة وقال :

— ما تشوفوا لقمة يا ولاد يمكن يهبط .

ويبدو أن الكلمة وصلت إلى أذن الشيخ على مع أنه كان يعد بصوت
عال مرتفع ، فقد استدار إلى الجمع قائلاً :

— لقمة إيه يا بلد يا غجر ؟ لقمة من عيشكو المعفن وجبتكم
القديمة اللى كلها دود ؟ وده أكل ؟ ودينى مانى ساكت الا اما تنزل لى
المائدة لغاية هناه وعليها جوز فراخ .

وسرت هممة كثيرة فى الجمع ، وقالت ولى من الواقفات :

— آنى طابخه شوية بامية حلوين يا خويا أجيب لك صحن ؟
وصرخ فيها الشيخ على :

— اخرسى يا مره . بامية إيه يا بلد كلها قرون . دا عقولكو بقت
كلها بامية وريحه بلدكو زى ريحة البامية الحامضة .
وقال أبو سرحان :

— حدانا سمك صابح يا شيخ على شارينه لسه من اخد الصياد .
وزأر فيه الشيخ على :

— سمك إيه بتاعكوده اللى قد العقلة يا بلد « صير » ؟ هو ده سمك ؟
ودينى إن ما بيعت جوز فراخ والطلبات اللى قلت لك عليها لشاتم وزى
ما يحصل يحصل .

وأصبح الوضع لا يخطر ، إما السكوت وضياح البلدة ومن فيها وإما
إسكات الشيخ على بأى طريقة ، وانطلقت مائة حنجرة تعزم عليه

(م ٤ — حادثة شرف)

بالغداء ، وانطلق صوته مائة مرة يرفض ويصر على الرفض ويقول :
— ماني قاعد على اللضى يا بلد بقى لى ثلاث أيام ماحدش عزم على
بلقمة ، حليت العزومة دلوقتى ؟ ودينى ماني ساكت الا اما تيجى المائدة
من عند ربنا .

واستدارت الرؤوس تسأل عمن طبخ فى هذا اليوم إذ أن كل الناس
لا يطبخون كل يوم ، وأن يكون لدى أحدهم (زفر) أو فراخ يعد حادثا
جللا . وأخيرا وجدوا عند عبد الرحمن رطل لحمه (بتلو) مسلوقا بحاله
فأحضروه على طبلية .. وأحضروا معه فجلا وجوزين عيش مرحرح ونخ
بصل ، وقالوا للشيخ على :
— يقضيك ده ؟ .

وتردد بصر الشيخ على بين السماء والطبلية ، وكلما نظر إلى السماء
قدحت عيناه شررا وكلما نظر إلى الطبلية احتقن وجهه غضبا .. والجمع
يغمره السكون ، وأخيرا نطق الشيخ على وقال :
— بقى آنى عايز مائدة يا بلد غجر تجبولى طبلية ؟ وفين علبة
السجاير ؟

وأعطاه أحدهم صنلوق دخانه .
ومد يده وتناول قطعة كبيرة من اللحم ، وقبل أن يتاويها فى فمه قال :
— وحتة المرة فين ؟!

فقالوا له :

— حقه إلا دى .

وهاج الشيخ على وقال :

— طب هه . وترك الطعام وخلع جلبابه وعمامته وراح يهز عصاه ويهدد بالكفر من جديد . ولم يسكت إلا بعد أن أحضروا منلور تاجر المر ، وبلع له فصا وقال له :

— خد .. خد يا شيخ مش خسارة فيك . أصلنا ما حدناش نظر وما كناش عارفين بتتكسف تطلب ، الناس تقعد وياك وتنسبط وبعدين تدلل ودانها وتمشى وتسيبك واحنا لازم نشوف راحتك يا شيخ . هي بلدنا من غيرك انت وابو احمد تسوى بصلة ؟ إنت تضحكنا واحنا نأكلك .. إيه رأيك في كده ؟!

وغضب الشيخ على غضبا شديدا ، وطار وراء منلور وهو في قمة الغيظ ومضى يهز الحكمدار وهو يكاد يهوى بها على رأسه ويقول :

— أنا اضحكوا ؟ هو آنى مضحكه يا منلور يا ابن البلغة ؟ إمش داهية تلعنك وتلعن أبوك .

وكان منلور يجري أمامه وهو يضحك ، وكان الناس يتفرجون على المطاردة وهم يضحكون ، وحتى حين طار الشيخ على وراءهم جميعا وهو يسبهم ويلعنهم كانوا لا يزالون يضحكون .

ولا يزال الشيخ على يحيا في منية النصر ولا تزال له في كل يوم نادرة ، ولا يزال سريع الغضب ، ولا يزال الناس يضحكون من غضبه .. غير أنهم من يومها عرفوا له ، فما يكادون يرونه واقفا وسط الجرن وقد خلع جلبابه وعمامته وأمسك بالحكمدار في يده وراح يهزها في وجه السماء ، حتى يدركوا أنهم نسوا أمره وتركوا « أبو احمد » ينفرد به أكثر من اللازم ، وحينئذ وقبل أن تتسرب من فمه كلمة كفر واحدة تكون الطبلية قد جاءت وعلينا ما يطلبه ، وأحيانا يرضى بما قسم وأمره إلى الله .

اليد الكبيرة

هبطت من القطار في العصر . ودائما أصل بلدنا في العصر والمحطة على ناحية من السكة الحديد وبلدنا على ناحية ، والشمس صفراء وفي صفرتها هلوء وسكون ومرض ، وبلدنا أيضا تقبع صفراء ببيوتها المصنوعة من الطين وأشجارها حتى قمم النخيل كانت تظللها صفرة ..

ورمقني نفر من دائمي الجلوس على كنية المحطة إذ هي مكان صالح للجلوس الفارغ ، لا أحد يطرد الجالس ولا يطلب منه الثمن . رمقني ذلك النفر بنظرة لا بد أنه كان فيها رثاء . ومشيت والقطار لا يزال واقفا برأسه الأسود البشع السواد ، والأصوات الخشنة القبيحة التي لا تكف عن الصلور منه ، والعين الواسعة المدورة الحمراء التي تنفخ في داخلها بين الحين والحين وتنفث جحيما أحمر ، الرأس الذي طالما أخافنا ونحن صغار بأفطع مما كان يخيفنا رأس أم الغول . هذه المرة عبرت القضيب الحديدى من أمامه وأنا لا أحفل بشيء ولا أخاف الموت .

وكنت حين أصبح على المشاية الضيقة التي توصل إلى داخل البلدة وإلى دارنا أحس إحساسا غريبا بأنى أخيرا عدت ، ودائما كنت أصادف في طريقى ثلاثة أو أربعة من أهل بلدنا منتشرين في تلك البقعة وأقول لهم : سلام عليكم ! ويحيبوننى ويرحبوننى وهم يرمقوننى ويرون ما أحدثته السنون فى من تغيير وأرى ما أحدثته السنون فيهم من تغيير . رأيتهم وأنا طفل ورأونى وهم شباب ، واليوم لم أعد طفلا ولم يعودوا شبابا . الزم من .. الزمن الغادر الذى لا أمان له لا يكف عن المضى ونحن لا نكف

عن الكبر ولا نكف عن الاقتراب من النهاية . ونحن لا نحس بالزمن إلا إذا رأيناه ، ونحن نرى ما أحدثه الزمن في الآخرين فتتوقع أننا لا بد أننا نحن الآخرين كبرنا ..

وقرئنا دائما هادئة ، لا صوت .. لا زعيق .. لا شجار .. لا شيء ، هواء يداعب ما على الأسطح من حطب ، وقوافل الأوز ساكنة لا تكاكي ، وكل شيء من الطين ، والأرض فوقها تراب ، وفي السماء دخان المواقد ، والناس يتحركون في صمت ووجوم وبلا حماس كمن يدرك ألا داعي للعجلة مطلقا ولا فائدة في الحركة ، الناس صامتون كأنما ينتظرون يوم القيامة ليتكلموا أو ينتظرون الموت .

وأعرف أني إذا وضعت قدمي على المشاية فسأرى بيوتا على عتباتها نسوة . وتعودت من صغري أن أغض طرفي حين أمر ، وتعودت أن يتهامسن بعد مروري يحدقون في وأنا قادم ثم يتهامسن .

والمشاية قطعها عشرات الآلاف من المرات .. إلى الابتدائية ينطلقون قصير ، وتعلمت فيها ركوب العجلة ، وجريت فرحا بنجاحي في الامتحان ، وتزحلق أيام المطر ، ولعبت فيها مع الأولاد بالليل ، وفي آخرها يتنا له سور وباب من الصاج ، وأمامه مباشرة باب جارتنا بديعة وهي دائما أمام الباب أطفالها حولها وهم صغار ، والنسوة حولها لما كبر الأطفال . ودائما تصنع شيئا ، تدعك النحاس أو تنشف الغلة أو تسأل عن فرخة ضائعة ، ومن لحظة أن تراني هالا من أول المشاية تلمحنني وتفرح ، ثم تهكم فيما تصنعه فهي تريدني أن أقول لها العواف ، تريدني فقد كنت من سنين طويلة طفلا أعطش إذا لعبت وجريت وأذهب لأشرب من عندها خوفا أن تضر بني أُمي إذا ذهبت لبيتنا ورأت ما أنا فيه

من إجهاد ، وكانت خالتي بديعة تسقينى وتحمينى وتخبئنى عندها إذا غضبت وتوخش عني إذا ضربت ، ولكنى كبرت وتعلمت وأصبحت أفنديا طويلا له بدلة ، ترى ألا زلت أذكرها ؟ ذاك بلا ريب ما كان يدور في خاطرها كلما رأتني مقبلا من مصر ومعى الشنطة ، والسنون قد جففت عودها وكرمشت جلدها ولكنها أبقت لها ابتسامتها الوديدة ذات الطيبة .

وقلت لها :

— العواف يا خالة بديعة .

ورفعت رأسها ولححت الفرحة الدافقة على عينيها واضطراب يدها وهي تجلى الحلة بالتراب ، وكادت تبتسم ولكنها عادت ورددت في صوت حنون راث رقيق ، وهزنى الصوت فلم تكن خالتي بديعة كذلك .. كانت ما تكاد ترد على عافيتي حتى تترك ما في يدها وتقوم هالعة وتفتح بابنا وتكاد تزغرد ، وتقول :

— أهو جه .. أهو جه ..

وتحدث حينئذ ضجة هائلة في بيتنا ، فهم لم يرونى من ستة أشهر أو سنة ودائما في شوق إلى ، وكنت قد تخرجت صغيرا ومن يوم أن تخرجت لا أراهم إلا لماما ، وكانوا يحبوننى .

يفتح بابنا وينفج أكثر من واحد من إخوتي حفاة ونجلايهم ، وأحيانا بالفانلة والسروال ، وينعلق كل منهم في جزء من رقبتي وفرحتهم بأخديم الكبير لا توصف ، فرحة تتفجر على ألسنتهم صياحا وتهليلا ولا يقولون سوى : هيه .. هيه .. هيه ..

وأعانقهم بكل قلبي وأذرعى ، هم إخوتي وأنا أحبهم .. والمدينة التى أعيش فيها مليئة بالصراع وحياتى هناك مقبضة أدافع فيها عن الوجود ، وجودى ووجود غيرى ، وأقف أمام قوات هائلة .. وقلبي وحيد ، والناس لا أكرههم وأرثى لهم وأصدقائى كثيرون ، ولكن مثل هذا الحب لا أتلقوه إلا هنا .. حب لا مقابل له ولا حدود ، حب ملموس محسوس لا يخفيه أحد ولا يضمن به أحد .

أعانقهم أبذل الجهود لأتخلص من أذرعهم الصغيرة الطفلة .. حتى أرى أى فأنا دائما مشتاق له .. أنا ابنه الكبير وحبيبه الكبير أيضا . وكان وضعى يحتم على أن أبدو كالرجال تماما ، وكنت أفعل ولكنى كنت دائما أحن إلى أبى .. إلى طفولتى .. إلى أن أنفض عني ثياب الرجال وأعود طفلا أو كالطفل حتى أبدو ابنا ، وحتى أحس أنى ابن . وكنت أحب أبى .. أدخل من الباب فأجده قد أفاق مما كان يفعله على عجل ، واقفا يرتدى جلبابه ورأسه عار و صدره مفتوح وهو حائر فرحان يبحث هنا وهناك عن شئ يضعه فى قدميه ليستطيع أن يسرع ويقابلنى .. فقد كان هو الآخر يحبنى ، يحبنى أكثر من أى شئ آخر فى الوجود . ويقف على باب دارنا الكبيرة ويفتح يديه الاثنتين ويقول :

— أهلا أهلا .. اخص عليك يا شيخ .

وأندفع إلى حضنه ويندفع إلى حضنى وكم حضنته وكم احتضنتنى ، وطول عمرى كنت أريد أن أظل أحتضنه . كنت وأنا صغير لا أطول إلا ساقه فأحتضنها ، ثم كبرت حتى أصبح فى استطاعتى أن ألف يدى حول وسطه وكم كان يملؤنى هذا بالغبطة . ثم كبرت حتى أصبحت طوله ، وها أنذا أصبح أطول منه وأحبه أكثر مما أحبته وأنا لا أكاد أتعدى

ساقه . أحضنه وأقبله بلهفة ، وألمح جلد رقبته وقد حفل بالتجمعات .
أحب تجمعاته ، وشعر صدره وقد ابيض وأطل من فتحة القانلة ، ولون
بشرته الداخلية الفاتح ، ووجهه الأسمر ، وأنفه الهادئ الطيب ، وعينه
الحافلتين بالخير والحب ، وأقبله أكثر ويقبلنى والدموع تكاد تأخذ
طريقها إلى عينيه وهو يقول :

— اخص عليك يا شيخ وحشتنا .. بخالص ..

وفي تلك اللحظات أصمت وأحس بالروح تعود إلى ، أنا مضئع في
المدينة الكبيرة وحيد ، وهنا أنى ، هنا بيتنا ، هنا أنا إنسان له أب ويعرف
أصله وفصله والأرض التى شب عليها .

أنى لا يريد أن ينهى العناق ، وإخوتى من حولى يتخاطفون منى الحقية
ويتشبهون بملاسى ويعانقون بعضهم بعضا . وأمى أعرف أنها لا بد فى
تلك اللحظة متناومة تنتظر منى أن أذهب إليها وأنادى فلا ترد على وكأنها
فى أحلى نعاس ، فأذهب إلى الفراش وأمسك يدها وأميل بجسمى كله
وأقبل اليد البيضاء الخشنة ، وحيث تفتح أمى عينها وكأنها تستيقظ
وتقول فى حزن :

— الله يسلمك .

ولا أملك نفسى فأضمها وأقبلها فى جبهتها فلا تملك نفسها هى
الأخرى وتقبلنى فى وجنتى وصوتها مملود شاك حزين ، وتلك طريقتهما فى
بث أشواقهما إلى إذ هى لا تظهر حبها أبدا .

ونجلس حول فراشها وكل أخ من إخوتى يزاحم الآخر ليجلس
نجوارى أو فوق رجلى ، وأنى يتعد عنى ليوفر لهم المكان ولو كان الودوده

لزاحم وما تركنى ، وأمى تشكو من الزكام والروماتزم ورأسها الذى يكاد يطير ، وأنى فرحان فرحا لا يوصف يخفيه بصمته وتهيئة وسائل الراحة لى فيضع وراء ظهرى مستندا ، أو يجعلنى أقوم من مكافى لأجلس فى مكان آخر أكثر راحة . وهو من فرط فرحته قد نسى أن يرتدى فى قدميه مداسا .. وأقدامه كبيرة كنت شغوقا وأنا صغير أن أمسح وجهى فى بطنها وألعب فى أصبعها الكبير وأنا فخور بكبره وكبرها ..

نجلس ، عائلة تواجه الحياة ولكنها فى صفو ، ساعة تتبخر فيها الأحزان والمتاعب ولا يبقى سوى الحب والشوق والكلمات الصغيرة المبعثرة والضحكات .. ضحكات صافية ، والعائلة صغيرة والحياة كبيرة والطريق شاق ، ولكن لها هى الأخرى ساعتها ، ساعة كتلك .. اللبنة الغاز مشتعلة والحجرة حجرة أرياف والسرير له ناموسية والكنبة تضيق بنا ، وفى الصيف لنا جلسة فى الفضاء أمام الباب ، وأنى سعيد جالس يتنا كالإله ، كلنا نحبه ونلذوب فى حديثه . ما أجمله حين يتحدث ! فى الحال نصمت كلنا ونترقب ، ويندأ حديثه بابتسامة تظل طوال الحديث ، وحنجرته رنينها حلو وصوته ملآن وطريقته فى الكلام تأسرنا وتخلب ألبابنا . يكون قد ذهب إلى المحكمة مثلا وأدى الشهادة ويقص هذا علينا ، ونحب قصته فهو يبدأ من اللحظة التى نريده جميعا أن يبدأ منها ويقص علينا التفاصيل المثيرة الدقيقة ويسرح بنا ويدخل فى حكاية أخرى ، ولا نحس أن حكاية بدأت وأخرى قد انتهت إنما نحس أننا سعداء وأننا نحب أبانا ونعبد .

لم تقم خالتي بديعة وترك ما في يدها وتعلن قلوبى في هذه المرة . بل ردت تحيتى وخفضت رأسها وانهمكت تجلى الحلة . وتركتها واتجهت إلى دارنا . كان باب الحوش مفتوحا والباب من الصاج والهواء يتلاعب به فتزيق مفاصله ، ووراء الباب فرخة منكمشة على نفسها ، وطفل يتبول . ودخلت .. الهدوء هو الهدوء ، ولكن بيتنا ليس هو البيت فهذا أوسع وأكثر ارتفاعا وفيه فراغ كبير . خطوات إلى الداخل بضع خطوات .. الفناء هو الفناء « الطلمبة » موجودة وحوضها من الحجرة والماء يتسرب من الحوض ويصنع قنوات ، والأشجار متفرقة كعاداتها ، والنخلة قد نمت وقتلت ما حولها من نخيل صغير وأصبحت أطول من الحائط ، وشجرة العنب ماتت لا ريب من كثرة الماء ، وبرج الحمام في آخر الفناء أبيض وفيه خرايش ، وأوضة الفرن بابها مهبط أسود والظلام يشع من داخلها ، والأرض عليها غفش ومهملة والفناء كبير ..

ووجدت باب البيت مفتوحا هو الآخر ولا أحد على الباب ولا أحد في الداخل ولا أحد ينتظرني وكل شيء مهمل ، والدنيا شتاء واصفرار الشمس قد ازداد والنخلة الصغيرة طول ظلها يمتد بطول منزلنا ..

ودخلت البيت .. الصالة الكبيرة أكبر مما رأيتهما آخر مرة ، والسقف مرتفع وعروق السقف أكثر بروزا ، والكنبة يياضتها متسخة ومساندها نائمة ، والحجرات مقفلة ولا صوت .

الحمام واقف على قمة الباب المؤدى إلى السلم يهبل هديلا ممدودا قبيحا ، وكلبنا نائم على فروة الصلاة ، وعصافير غير مرئية تصفر ، وشعاع شمسي قد اخترق بئر السلم وسقط على أرض الصالة فصنع دائرة صغيرة من الضوء الأصفر ، وتعلقت بالشعاع ملايين النرات .

وأحسست أن يبتنا قد خرب .

وعدت إلى الخارج ثم إلى الشارع ، ومارأتني خالتي بدیعة حتى قالت :
— عايز حاجه ؟ .

قلت :

— هم فين ؟

قالت :

— طلّعوا على الجبانة .

قلت :

— وسايين البيت فاضى ؟

قالت :

— ما انا هه .

ورأيت نفسى أمشى .

كان صدرى فارغا موحشا ككيبا والدنيا من حولى لا تجذب انتباهى .
ما قيمة أى شىء ؟ ما قيمة أن أقول للناس : سلام عليكم . فيردون
السلام وتفضل ؟ إنهم أحياء وأنا حى ، ولكن ما حدث قد حدث .
وتمت .. بدت لى بلدتنا التى أعرف كل ركن من أركانها بلدة
أخرى . كنت أمر فى هذه الشوارع والحوارى دائما وأنا لا أحس لها
وجودا ، وأنا آلفها وكأنها يبتنا . واليوم وأنا أمشى فيها كنت أراها لأول
مرة ، وكنت أعرف أناس بلدتنا وألفتهم من طول معرفتهم ، ولكنى
كنت أمر بهم وأراهم فأحس أنهم رجال ، وأنهم أغراب وأنهم متعبون .
شىء لا بد قد حدث .. فأنا أحس الآن ببلدتنا وأنا سها وكنت قبلا
آلفهم .. شىء ما لا بد قد حدث .

تمت ، فخلال السنين التى كنت بعيدا عنها كبرت بلدتنا واتسعت
وأنشئت بيوت جديدة . وكنت قبلا أعرف طريق الجبانة فبحوارها
كانت توجد وسعاية يقام فيها العيد . العيد ؟ ترى لماذا لم يعد هناك عيد ؟
لماذا لم نعد نحس به ؟ يأتى ويمضى كأتى يوم من الأيام . أين اليقظة
المبكرة ، والكعكة والعيدية ، وثياب الناس الجديدة الزاهية ،
والمراجيح ، والمشبك والحلاوة الطحينية ، و« الفرد ابو فلة » الذى كان
يفرقع ونخيف به جداتنا ؟ .

تمت ، ولكنى وصلت وأصبحت خارج البلدة .. ولم أجد الوسعاية.
كانت قد تراكمت فيها بيوت أخرى مصنوعة من الطين . وكانت الجبانة
هناك تطل قبورها من بين البيوت .

وكم كنا مغفلين !

فها هى القبور أمامى وحولى .. قبور فقيرة مهدمة لا شئ يرعب فيها
ولا يخيف . ترى ما سبب الفزع الذى كنا نحسه ونحن صغار حين نلمح
الجبنة من بعيد ؟ ترى أين قبر جدتى وأين قبر عمى وخالى ؟ إن القبور
مهدمة كلها ومبعثرة لا تكاد تفرق بين أحدها والآخر ، وكل ما يميزها
جريدة عند أولها وجريدة عند آخرها .. جريدة جافة قديمة قد تأكلت
أوراقها واستحالت إلى نسل .

جبت المكان بناظرى فلم أجد أحدا ، لا ريب أنهم كانوا قد غادروا
الجبانة وعادوا إلى البيت ، ولم أجد عناء كبيرا فى العثور على القبر فقد كنت
لا أزال أذكر أنه قرب شجرة الكافور ، وها هى شجرة الكافور . لا بد
أن هذا هو القبر .. ووقفت أمامه . كان الأسمنت لا يزال أخضر ، ولم
يكن البناء جيدا وأثر « المحارة » واضح ، ومن الأمام لافتة مركبة كتب

عليها : المرحوم .. وقرأت اسم أئى . وعدت أنظر حولى .. القبور مهدمة ، وأشجار الكافور طويلة وحيدة جرداء ، والشمس خنقها العصر الضيق ، والغربان تتناحر عن بعد ، وسوادها كثير .

أئى هنا إذن تحت هذا القبر ! كل هذه الكمية من الحجارة والتراب والأسمنت فوقه وهو الذى كان لا يحتمل إغلاق نافذة الحجر ساعة . أئى هنا نائم وملفوف بالكفن التيل المخطط وفوقه الكفن الأبيض وحوله كل تلك الوحشة ، وعيونه مغلقة . أئى هنا لا يمكن أن يكون راقدا فقد كان لا يحتمل الرقاد الطويل . لا بد أنه جالس .. أجل إنه جالس .. جالس القرفصاء وكأنه يقرأ التحيات وقدمه الكبيرة مثنية تحته وأصبعه السبابة تتحرك وعيناه إلى أسفل وكأنه يصلى . ها هو قد ختم الصلاة .

وقلت : سلام عليكم .

ولم يرد . فقط نظر إلى بعينه الواسعتين ورأيت رقرقة الفرحة فى عينيه ، ولكنه لم يرد وكان حزينا ويتمم بختام الصلاة .
قلت له : أنا هنا يا أئى .. أنا حبيبك وقد عدت . لماذا لا تقول : أهلا .. أهلا ..

لماذا لا تقول : إخص عليك .

وقلب كفيه حتى أصبح باطنهما إلى أعلى ورفع وجهه إلى السماء ودعا بشئ ، ثم مسح يديه على وجهه وتطلع إلى ، كان حزينا ومتعبا ولم يتكلم .

فقلت : ألا تعرف أئى أحبك ؟

وأغمض عينيه ، وشدد من إغلاق أجفانه وكأنما يقول نعم نعم .
قلت : وحى لك لا يقدر ؟!

وفتح عينيه وفيهما لمعة حزن .
فقلت : وأنت أحب إنسان إلينا جميعا .
فعاد يغلق عينيه فى ألم .

فقلت صارخا : إذن لماذا تفعلها وتموت ؟!

وفتح عينيه فى دهشة وحدجنى بنظرته القاسية الثابتة .
تلك النظرة التى كان يطالعينى بها كلما ارتكبت خطأ عظيما . وكنت
أخاف من نظراته تلك وأنا صغير وأخافتنى لحظتها كما لم أخف فى حياتى .
وخفضت صوتى حتى استحالى إلى همس وقلت : وحياة النبى الذى كنت
تحبه ، لماذا مت ؟ لماذا تركتنا ؟ .

وكان أبى أسمر وله تجاعيد.. تجاعيد كبيرة طيبة، وكنا نحبها وطالما
لثمنائها ولم يتغير منظره فى أعيننا طوال السنين ، كنا نكبر ونتفرق ونعود
لنجد أسمر ذا تجاعيد كبيرة طيبة .

وأردت أن أقبله فى تلك اللحظة فقد أحسست فجأة أنى مشتاق إليه
وحياتى قضيتها مشتاقا إليه . وكلما عدت من غيبتى ورأيت أقسم لنفسى
أنى لا بد سأخذ إجازة لأقضيها معه فقط ولأشبع منه ، فقد كنت أخاف
أن يموت قبل أن أشبع منه .. أردت أن أقبله واندفعت ناحيته لأفعل ولكنه
رفع يده من فوق ركبته كمن لا يود أن يقاطع وهو يصلى ، وتوقفت
وقلت :

— كيف تموت قبل أن أشبع منك ؟

ولمحت دمعة صغيرة كمرأس الدبوس تفر من عينه ، وتذكرت لحظتها
فقط ساعة أن وضعوا النعش بجوار الحفرة ثم فردوا ملاءة كبيرة فوقها
وأزاحوا غطاء النعش ، وبالراحة حملوه وقد أصبح صغيرا فى الكفن

الأبيض ، ووسطه قد سقط بين أيدي الرجال ويده اليمنى حين انزلت وأطلت من الكفن .. كانت هي يده بلا ريب ، نفس اليد الحبيبة الضخمة ذات الشعر والكف التي طالما ملست على رءوسنا وباركتنا ، اليد التي كنا نقبلها ونتأملها ونحن نقبلها ، اليد التي طالما لعبنا في أصابعها الكبيرة وأحببنا لونها وخطوطها وضخامتها .

وعدت أقول له : لماذا لم تقل لنا إنك ستموت ؟ وانتظرت أن يجيب فلم يفعل .. فظننت إليه فوجدته لا يزال على جلسته ولكن عينيه مغمضتان ووجهه أصفر شديد الشحوب لا يتحرك . وجدته كشجرتنا المقطوعة حين هوت على طولها في الفناء ومضى على قطعها أيام واصفرت أوراقها وذبلت وتعت الأغصان .

وعدت إلى بيتنا .

لا يزال برج الحمام في آخر الفناء أبيض وفيه خرايش ، وأوضة القرن بابها مهيب أسود وظلام يشع داخلها ، والأرض عليها عفش كثير ، والبيت واسع جدا وخاو ليس فيه إلا المغرب والصمت والهواء الساكن الذي لا يريم .

وفي نفس الحجرة التي كنا نجتمع فيها أصبحنا وحدنا . وجلسنا .. إخوتي يرتدون ملابسهم الكاملة وتكثيرة الحزن تبسو غريبة على وجوههم الصغيرة الشابة ، وأمي متعصبة بمنديل وفي أنفها وفمها وعينيها ألم واحمرار ودموع .

جلسنا صامتين واجمين ، ومصباح الغاز نوره أحمر ككيب وعلى الجدران ظلال رءوسنا .. ظلال واجمة داكنة كقلوبنا تبهت وتغمر كلما كبرت ذبالة المصباح وصغرت ، جلسنا ساكنين وكأننا ننتظر شيئا ما ، ننتظر

أن يدق الباب ونذهب جميعا لنفتح لأنه قد عاد .. ضاحكا طربوشه إلى الورا كما تعود أن يفعل ، فاتحاذراعيه وصلره ليسعنا جميعا بكل مشاكلنا ومتاعنا الصغيرة . أو هو في الحمام لا بد وحالا سيخرج .. ويتحنح ويكح كحته التي حفظناها وألفناها ، كحته التي لا نتصور بيتنا إلا بها . أو هو في الفناء حتما يحدث جارنا ويصلنا صوته من بعيد ، وما أجمل صوته حين كان يصلنا من بعيد ونعرف أن هذا صوت أينا ، نعرفه من ألف صوت ونجبه دون آلاف الأصوات ونفرح به ، فمعناه أن أبانا قريب وأنه قادم ، وأنا سنكون بعد قليل حوله وفي حضنه وعلى مقربة من عينيه وحديثه وشعر صدره .

ولكن شيئا مما انتظرناه لم يحدث . لا دق الباب ولا سمعنا صوتا ، وأقطع ما في الأمر أننا كنا متأكدين أن الباب لن يدق وأننا لن نسمع أصواتا .

والمصباح يكاد نوره يختق وغازه يفرغ ، وظلالنا تبهت على الجدران وتتداعى ، وإحساس غريب بدأت أحس به وأدرك أنني كنت أعانيه ولا أشعر ، إحساس أكاد أتلقوه بطرف لساني وأحس بقبضته حول صدرى ، إحساس بأننى حزين حزين .

وتطلعت في وجوه إخوتي .. وجوه مطرقة صامته ذاهلة .

وتطلعوا إلي .

وفجأة وكأنما لسعنا خاطر واحد انفجرنا كلنا نبكى ، فقد أحسنا لحظتها فقط أن أبانا حقيقة مات وأنه انتهى من حياتنا إلى الأبد ولم يعد لنا أب . ما أبشع هذا ! لم يعد لنا أب !

تحويد العروسة

كون الشراقة — بلدياتي — كرماء ، مسألة لا نقض فيها ولا إبرام .
أما أن يبلغ هذا الكرم حد التهور وحد « تحويد » العروسة فتلك مسألة
أخرى كما يقولون . بل هي في الواقع عادة غريبة لم يعطل استعمالها في
مديرية الشرقية إلا من سنتين تقريبا .

فمن المعروف أن البنت الريفية حين تتزوج في بلد غير بلدها يخرج
أهلها في يوم الدخلة عن بكرة أبيهم لإيصالها إلى بلد العريس . ونظرا لأن
الأمن — أيام زمان طبعاً — لم يكن مستتباً في تلك المناطق الواسعة
الشاسعة ، فقد جرت العادة أن يخرج مع العروسة عدد كبير من أهل
بلدها في أثناء الطريق ، مكونين بموكبهم قافلة طويلة جداً على رأسها جمل
العروسة الذي يقوده العريس في العادة ، أو من ينوب عن العريس .

إلى هنا والأمر عادي يحدث مثله في كل مديريات القطر . أما الذي
كان لا يحدث إلا في الشرقية وحدها فهو أن موكب العروسة كان حين
يمر ببلد من البلاد أو بعزبة من العزب ، يخرج أهل البلدة أو العزبة بأعيانها
وشيوخها وشبابها ليعزموا العروسة وبلدياتها . ولكني يشبوا جدية العزومة
كانوا يذبحون الذبيحة فعلاً ويلقون رأسها فوق نبوت أحدهم وينتظرون
حتى يقترب الموكب ، وحينئذ يتقدمون منه ويضعونه أمام الأمر الواقع
قائلين :

— تفضلوا عشاءكم جاهز والذبيحة ذبحت وميتكم الليلة عندنا ..

(م ٥ — حادثة شرف)

وطبعاً كان أهل العروسة يرفضون بشدة فالليلة ليلة الدخلة ولا وقت للعزائم أو مزاوله الكرم الشديد ، ولكن العازمين لا يرضيهم هذا معتبرين أن الرفض إهانة خطيرة موجهة إلى قدرتهم على استضافة العروسة وأهلها . ويشدد أهل البلدة في دعوتهم ويشدد أهل العروسة في رفضهم ويزداد كل طرف إصراراً . ويصل الأمر في النهاية إلى حد الشتائم والتماسك بالأيدى .. ثم لا تلبث النبايت أن ترتفع وتقوم خناقة كبيرة قد تسفر عن قتلى وجرحى ، ولكنها لا بد أن تنتهى إلى أحد أمرين : إما انتصار أهل العروسة ومواصلة طريقهم إلى بلد العريس ، وإما انتصار أهل البلدة واقتياد الموكب المهزوم واستضافته بالقوة ...

وفي أغلب الأحيان كان أهل العروسة ينتصرون إذ الحمية كانت تأخذهم والمسألة بالنسبة إليهم مسألة كرامة وشرف ممكن الدفاع عنها إلى حد الموت . أما بالنسبة إلى أهل البلدة فنادراً ما كانوا ينتصرون إذ المسألة بالنسبة إليهم مجرد إظهار لشدة كرمهم ، وتلك قضية قد لا تدفع الإنسان إلى التفريط في نفسه وإزهاق روحه ..

ظلت هذه العادة جارية قروناً طويلة وقروناً حتى قضى عليها من وقت قريب .. وسبب زوالها أن إحدى بنات قرية كفر عزب كتبت كتابها على واحدة من بلدة أخرى بعيدة . وفي يوم الدخلة خرج أهل القرية عن بكرة أبيهم ليوصلوا العروس كالعادة .

وفي الطريق فوجئوا بعملاق أسود يخرج عليهم ومعه ثلة من أتباعه وقد رفع بيوتاً أطول من النخلة فوق رأسه ، ووقف في وسط الطريق دون أن ينبس ببنت شفة . وما كاد أفراد الموكب يلمحون الرجل حتى بدأ الضغراب شديد بجتاح صفهم الطويل ، ذلك لأن أهالي كفر عزب كان

بينهم وبين الشجاعة عدم استلطاف قديم . كانت البلدة مكونة من عائلات كبيرة ثم تفتت .. فتها الفقر وقلة الأرض وتحولت إلى كفر مزدحم بآلاف الأنفس المتناحرة التي يأكل بعضها البعض ولا تبالي . كان أهل الكفر كلهم صغارا فى صغار ، الملاك لا يمتلك الواحد فيهم أكثر من بضع قراريط كل أمله فى الحياة أن يجعلها فدانا بأكمله ، والتجار — إذا صحت التسمية — مجرد باعة سريحة يلقون البقج والأخراج على أكتافهم يوم السوق ، وفى البلد أكثر من خمسين دكان بقالة لا يزيد ثمن البضاعة فى أى منها على الخمسة الجنيهات ..

وهناك عشرات يحترفون صناعة القهوة والشاى . ورأس مال الواحد فيهم ليس أكثر من براد شاى وعشة آيلة للسقوط يسكنها القهوجى .. والفقهاء ومقرئ القرآن ومن يصنعون الطعمية ويقفون بها على أبواب الجوامع بعد الصلاة ، والقفاصون والقصاصون وصغار اللصوص والحرامية .. كل هؤلاء متوفرون بالمئات والعشرات والحمد لله ! إذا خلا منصب خفير تقدم له أكثر من مائة وبذلوا الوساطات والشفاعات ، والذى يعمل منهم خولى دودة فى موسم نقاوة القطن لا بد أن أمه دعت له ، ومع هذا الضيق الشديد فى الرزق ، بل يمكن أن يكون من أجل هذا الضيق الشديد فى الرزق ، فشكاوى بعضهم من بعض لا تنتهى ، والبلاغات التى تدعى الشروع فى القتل والسرقة بالإكراه وهتك العرض تنهال على المركز من كفر العزب باستمرار ، والجدع هناك طبعاً هو من يكسب القرش الأزيد بلا أى اعتبار للطريقة التى جاء بها القرش . الرجل إذا نخخ ووفر المليم شاطر ، وشيخ الحصة إذا أخذ شلنا أو نص فرنك يمحضى على العرضحال شاطر ، حتى العملة شاطر .. لأنه من التجارة فى

القطن (ثاني جمعة) اسما ، والمسروق من الحقول فعلا ، قد حاز نصاب العمودية .

وعلى هذا لم يكن غريبا إذا ذكرت لأحد من أهل كفر العزب شيئا عن الجدة أو الشجاعة أن يلوى رقبته ويقول لك :

— ودى تسوى كام فى يوم السوق يا حبيبى .. ؟

بل هم فى الواقع لم يكلفوا خواطرهم ، ولم يخرج المئات منهم لتوصيل العروسة فى ذلك اليوم إلا وكل منهم يطعم فى عشاء الفراح الفاخر ذى البطاطس وأكوام اللحم المسلوق المغطاة بالأرغفة المخبوزة الطازجة ، ولا تحسب الحلويات والفرجة المجانية ، ثم من يدري ؟ ألا يحتمل أن تفتح لأحدهم ليلة القدر ويظفر بسيجارة مكنة ؟

ممكّن إذن أن نتصور الاضطراب الشديد الذى اجتاحت موكب العزابة لدى ظهور المارد الأسود ، وكيف علت همهمتهم وتقطع طابورهم الطويل وانخلعت الأفئدة وارتفعت الرؤوس تستكشف وتحاول أن تجد مخرجا ، وتتساءل :

— مين يتكلم يا ولاد مين ؟

ذلك لأنه لم يكن للموكب زعيم أو رئيس ، فالعزابة يكرهون الزعامة لأن كلا منهم يريد أن يكون هو الزعيم ، ولكن الزعامة هنا محفوفة بالمخاطرة ولهذا لا بد أن يتسائلوا ويتصالحوا :

— مين يتكلم يا ولاد مين ..

ورشح بعضهم الشيخ رجب أبو شمعة لا لأنه كان يمتلك ثلاثة أفدنة بأكملها اشتراها سهما وسهما ودبق ثمنها من حرمان نفسه وأولاده من لبن الحاموسة وبيعها ، ولكن لأنه كان أكثرهم حكمة فى موقف تعتبر الجراءة فيه نوعا من الحسق وقلة الأدب .

ولم يقبل الشيخ رجب إلا بعد إلحاح .. بل كاد يصنع عين واعتدالا .. أى أكثرهم خوفا ، ورجل كهذا تحمد زعامته فى الحكمة ويعود وحده إلى البلد ، ولكن تحت وابل من الدعوات والألقاب والتضرعات قبل ، وزعق فى الموكب مخاطبا إياه من أوله إلى آخره طالبا السكوت التام . وحين تم له ما أراد لكز حمارته القصيرة ذات اللون البنى الذى هو أقرب إلى لون فئران الغيط منه إلى لون الحمير ، وتقدم ممتطيا صهوتها ، غير أنه ما كاد يقترب من المارد الأسود وثلته حتى ترجل عنها احتراما ، وتقدم منهم قائلا بلهجة معجونة بملق العزوبة الأصل :
— دستوركم يا سيادنا .. سلامو عليكم .

ورفع إليه العملاق الأسود عينين يطق منهما الشرر وقال :
— لا سلام ولا كلام ! حودوا على طول ..
وبلهجة أكثر ملقا قال الشيخ رجب مدعيا البراءة التامة :

— على فين يا سيادتنا ؟

— أنتم ضيوفنا الليلة ..

— ضيوف مين ؟ ..

— ضيوف السنديك بك .. احنا بتوعه وآنى عنبر راجله ..

وحاول الشيخ رجب أن يتملص ويتملص سائلا الرجل عن رأس الدييحة التى جرت العادة أن تكون معلقة فوق نبوته ، مدعيا أن عدم وجودها يعطيهم الحق فى رفض الدعوة .. ولكن الرجل أفهمه بطريقة لا تقبل النقاش أو الجدل أن الدييحة ذبحت فعلا وأنهم لا بد أن يعودوا الليلة مهما فعلوا وسواء بالقوة أو بالتى هى أحسن .. ويبدو أن كلامه هذا أثار بعض شبان العزوبة ولم تعجبهم طريقة الشيخ رجب ، وأحبوا أن

يظهروا شجاعتهم على الأقل، أمام نساء بلدهم الموجودات في الموكب ،
فرمجروا وتصائحوا ورفعوا عصيهم الخيزران استعدادا للمعركة . ولكن
الشيخ رجب رفع لهم يدا حاسمة غاضبة ولعن آباءهم جميعا علامة الزعامة
وأسكتهم ، فقد كان يعرف حصة أهل بلده من الشجاعة ، ويعلم نتيجة
أية خناقة قد تنشب مع العزباوة ، إذ ما تكاد الخناقة تبدأ حتى يخط
العزباوى من هؤلاء خبطتين فقط ليثبت وجوده ويقيد اسمه في سجل
المتشاجرين ، ولكن ما يكاد الضرب الحقيقى يشتغل وتصبح الحكاية
جدا حتى يطلق ساقيه للريخ ، وعلى هذا قال للرجل الأسود :

— مختصر الكلام ... انت عايز إيه يا عم ؟

— تخودوا بالتى هى أحسن .

فقال الشيخ رجب وهو يلكر حمارته :

— بس كله ؟ .. حاضر ... احنا ضيوفك الليلة يا سيدى

ولا تزعل ... حود يا وله انت وهو .

ورفع عنبر العملاق الأسود حاجبيه علامة الدهشة وكأنا فجع بهذا
التسليم المطلق بلا قيد ولا شرط .. وهو الذى كان يحلم بخناقة يتسلى
وفى فخر برواية تفاصيلها أياما كثيرة ، ولا بد أنه عجب من هؤلاء القوم
الذين لا يقيمون للكرامة وزنا ، ولكنه على أية حال أمسك بمقود جمل
العروسة ومضى ميمما وجهه شطر العزبة ووراءه ما لا يقل عن خمسمائة
من أهالى كفر العزب ما بين راكب وراجل .. وواضع ثوبه في أسنانه ..
و حامل بلغته تحت إبطه .. أو مفضل أن يمشى بجوار دابته عملا بالمثل
العزباوى المشهور :

— هين نفسك ولا تهين بهيمنتك .

وأهل الموكب الضخم على عزبة السنديك . وخرج اليه بشخصه
يتفرج على فرح (الفلاحين) هنا ، وإذا بالموكب — لدهشته الشديدة
— يقف لدى سور حديقته ولا يتزحزح ، والأغرب من هذا أن عنبر
خادمه كان يقود الموكب .

وقال عنبر للشيخ رجب :

— استنوا انتم هنا واوعوا حد يتحرك .

وتحرك هو داخلا على سيده دخول طارق بن زياد بعد فتح الأندلس ،
قائلا بصوت القائد الظافر :

— حودنا العروسة يا سيدى البيك .

ونظر إليه البيك نظره إلى مخبول ولم يفهم ، وأخيرا بدا عليه أنه تذكر
وأن أباه كان قد حدثه عن شيء كهذا . ولكن تلك المسائل كانت في
الزمان الغابر في أيامه الأولى وأيام أبيه وجده الأكبر .. أيام العز ، الأيام
التي يسمع أنه كان لديهم فيها ألف وخمسمائة فدان وأربعة آلاف رأس من
الغنم . أين هو الآن من تلك الأيام ؟ الأرض راحت والعز راح ومنزل
الضيوف تهدم والمحصول يرهن لعدة بنوك قبل جمعه وحصاده ، ولم يبق
من مظاهر المجد القديم إلا عنبر آخر ما تبقى من عبيد العائلة أيام أن كان
للعائلة عبيد . وإذا بعنبر الأحقق هذا يحضر له ذلك الجيش من أهالي كفر
العزب ليستضيفهم ، جيش جائع متهالك كل واحد فيه لا بد قد أجاع
نفسه لعشوة الفرح حتى غارت وجنتاه ؟ .

وهكذا نزل اليه شتا وسبا ولعنا في خادمه ، وعنبر مذهول مدهوش
من تصرف سيده فطالما حود عرائس له ولأبيه ، وطالما فرحوا به
وبانتصاراته وجازوه عليها خير الجزاء ، وإذا بجزائه هذه المرة علقه ؟

الظاهر أن الأسياد فسدوا هم الآخرين كما فسد الزمان وراحت السيادة مع العصر الذى ولى . وإلا فكيف يخاف البيك من تحويد العروسة وكيف لا يفخر ؟

وظل البيه يضيق الخناق على خادمه حتى خيره بين أحد أمرين : إما صرف هؤلاء الناس كما أحضرهم وإما قتله رميا بالرصاص . ولم يجد غير بدا من اختيار الأولى ، وعاد وقد تغيرت سحنته وخبا الشرر فى عينيه وتدللت ملامحه وهو الذى سحب هذه المرة ناعما للشيخ رجب ولف كفه فى ملق كثير محاولاً أن يعتذر ، ملقيا الذنب على نفسه ومقسما بالله العظيم ثلاثاً أن سيده لم يكن له علم بما حدث .

ولكن سيده مين ؟ اعتدل الشيخ رجب فوق حمارته وانجفع إلى الوراء كما يفعل الأبطال المغاوير ، واسترد الخمسمائة من أهالى كفر العزب أنفاسهم الهاربة ووقفوا وراءه — ربما لأول مرة فى حياتهم — وقفه رجل واحد يؤيدونه ويحبونونه مصرين على أنهم ضيوف السنديك بيك تلك الليلة ، ما فى ذلك كلام أو سلام ، وأن كرامتهم لا يمكن أن تسمح بأن يهانوا على تلك الصورة .. هى الحكاية إيه ؟ لعب عيال ؟ .

وانقطع نفس غير وهو يجرى رائحا غاديا بين الشيخ رجب وبين البيك حاملا رأى كل منهما إلى الآخر ، مخفيا رأى كل منهما فى الآخر آملا أن تنجح المفاوضات . ولكن المفاوضات لم تنجح . ولما تأكد للبيك أنه ما لم يستضيفهم فسيفضحونه فى طول البلاد وعرضها وسيضحكون عليه طوب الأرض ، قبل الضيافة وأمره إلى الله ، وقضى ليلته حائرا واقفا على أقدامه باحثا عن ألحفة وأطباق وطعام يسد به مئات الأفواه المفتوحة الجائعة .

وكان أول شيء فعله في الصباح أن استغنى عن خدمات عنبر إلى الأبد ، مفضلاً أن يتنازل عن آخر مظاهر العز ولا الحوجة للدواهي التي تأتي بها تلك المظاهر .

أما العزابة فبعد أن شربوا قهوة الصباح ورشفوها بمزاج وأشعلوا السجائر أربعة وعشرين قيراطاً ، توكلوا على الله وامتطوا ركائبهم واستأنفوا طريقهم إلى بلد العريس ، ودعواتهم تنهال على الشيخ رجب وحكمته ، ومن كان منهم يشك في زعامته آمن وسلم وأصبح له أخلص المخلصين .. وزيادة في التكريم أخرجوا جمل العروسة وأصروا على أن يجعلوا الشيخ رجب وحمارته على رأس موكبهم .

وما كاد الموكب يتعد عن عزبة السنديك قليلاً والضحكات والفرقعات الصاعدة من البطون الممتلئة ببلاش تتصاعد منه ، حتى برز لهم عند الكوبرى المتحرك جماعة من أهل الروضة :

— اقف عندك يا جدع انت وهو .. وقفوا .

وتقدم الشيخ رجب مصطنعاً البراءة يسأل : وما كادت كلمة « حودوا » تفلت من فم أكبرهم سناً حتى كان الشيخ رجب قد حود حمارته ناحية البلدة فعلاً ، ويده تشير لبقية الركب أن يتبعوه .

ووقعت الروضة في حيص بيض إذ كان عليها لأول مرة أن تستضيف خمسمائة هي التي لا يتعدى أهلها المائتين ، وقد حاولوا الاعتذار بقولهم إنهم لم يكونوا على استعداد ولكن الشيخ رجب كفاهم مئونة الخجل قائلاً :

— الموجود يا جماعة يسد .

وهكذا ظل ركب العزابوة وعلى رأسهم الشيخ رجب أبو شمعة ،
تودعه بلدة لتستقبله بلدة أو عزبة أخرى حتى ولو كان الذى يعترض
الطريق رجلا واحدا ، وحتى ولو كان قد قال كلمته على سبيل المجاملة
والترحيب لا أكثر ولا أقل .

ولم يصل الركب إلى بلدة العريس إلا بعد سبعة أيام قضائها العزابوة
يأكلون ويشربون ويدخنون ويطعمون ركائبهم شعيرا وبرسيما وفولا .
ومن أيامها اضطر الشراقة إلى تخفيف حدة كرمهم ، فتابوا عن تحويد
العرائس وحرموا اعتراض مواكبها .

حادثة شرف

أعتقد أنهم لا يزالون يسمون الحب هناك « العيب » . ولا بد أنهم لا يزالون أيضا يتحرجون عن ذكره علانية ، ويتغامزون به وإنما تلمحه في النظرات التائهة الخيرية ، وفي وجنات البنات حين تحمر وتخضر وتنسدل عليها الأجفان .

والعزبة كأى عزبة ، لم تكن كبيرة : بضع عشرات من البيوت المبنية بحيث تكون ظهورها إلى الخارج وأبواب الدور تفتح كلها على حوش داخلى واسع ، حيث الساحة الصغيرة التى يقيمون فيها الأفراح ويلقون العجول المريضة إذا ذبحت لتباع بالأقة وبالكوم . والأحداث فى العزبة قليلة ومعروفة .. النهار يبدأ قبل مشرق الشمس وينتهى بعد مغيبها ، والمكان المفضل هو عتبة البوابة الكبيرة حيث الهواء البحرى وحيث يستحب النوم ساعة القيالة ولعب (السيجة) . الأحداث قليلة ومعروفة .. بل تكاد تعرفها حتى قبل أن تقع ، وتعرف أن هذه البنت المفجوعة التى تلعب الحجلة ستكبر بعد عدد من السنين وميصفو لونها الملبد ، ثم يخرطها خراط البنات وتزوج .. بالتأكيد واحدا من هؤلاء الصبية الذين يرتلون الجلايب الممزقة على اللحم ويستحمون فى التربة وينطون كالقرود المسلسلة من فوق الكوبرى .

غير أنه أحيانا ، تقع حوادث لا تكون معروفة ولا يمكن التنبؤ بوقوعها ، مثل ذلك اليوم الذى ترددت فيه الصرخات فى الغيط .. الصرخات الغامضة الغريبة التى ينشق عنها فضاء الريف الواسع أحيانا

فتلوى بطريقة مفاجئة ومرعبة ومستغيثة دون أن تعرف مصدرها ، ولكنك لا بد تترك منها أن شيئا مهولا قد وقع ، ولا بد حيثشذ أن تفيق فتجد نفسك تجري لتتجد أو على الأقل لتعرف الخير .

غير أنه في تلك المرة لم يكن هناك ما يستدعى النجدة أو المساعدة ، بل أكثر من هذا كان العائدون إلى العزبة يجلبون حرجا كثيرا حين تسألهم النساء عما حدث .

ماذا يقولون ؟ أيقولون إنهم وجدوا فاطمة في « اللرة » مع غريب ؟ .

ماذا يقولون وفاطمة ليست غريبة وغريب ليس غريبا .. فاطمة أخت فرج وغريب ابن عبدون ، والحكاية ليست تائهة ، فالعزبة صغيرة والناس فيها عائلة واحدة .. ولا يعرفون بعضهم البعض معرفة دقيقة فقط ولكن كل واحد يعرف عن الآخر أدق دقائقه وأخص أموره ، حتى النقود القليلة التي قد يكتنزها أحدهم يعرفون مكانها بالضبط وعددها والطريقة التي يمكن أن تسرق بها .. ولكن أحدا لا يسرق من أحد . هم إذا سرقوا يسرقون من محصول العزبة ، وحتى هذه مجرد سرقات صغيرة لا تتعدى ملء عب قطن أو حجر كيزان دره ، أو يساهي أحدهم خفير الزراعة وينضح مصرف أرز يأخذ سمكه له وحده دون أن يورد نصفه للناظر كما جرت العادة .

وافاطمة معروفة وكل شيء عنها معروف ، ولم تكن أبدا ذات سيرة خبيثة أو سلوك معوج . كل ما في الأمر أنها حلوة .. أو على وجه أصح كانت أحلى بنت في العزبة . وليس هذا هو الوجه الصحيح للمسألة أيضا فإذا كانت الحلوة تقاس في الأرياف بالبياض ففاطمة كانت سمراء .

المسألة لها وجه آخر خاص بفاطمة وحدها ، فلم يكن في استطاعة أحد في العزبة أن يعرف ماذا في هذه البنت بالذات دوناً عن بقية البنات . خلدوها صحيح كانت حمراء سمراء شديدة الاحمرار تظن معه أنها لا بد تفطر كل يوم بعسل نحل وتتعشى بفراخ وحمام ، ولكنك تدهش إذا عرفت أنه احمرار قد صنع من صحنون المش والفلفل المخلل وعروق البصل والفجل والسبك الصغير المحروق في الفرن . وعيونها كانت سوداء غامقة السواد ، ذاك السواد اللامع الذي لا تراه إلا مشعاً ومضيئاً ودائم الحركة لا يستقر .. العيون التي لا تختمل أن تنظر إليها أو تنظر إليك لحظة . وحتى إذا قلنا إن شعرها كان أسود ناعماً ، وثوبها الخبز الواسع الذي ترتديه لا يفلح في إخفاء بروز صدرها ونحول وسطها وامتلاء ساقها ، حتى إذا قلنا هذا قلنا فاطمة قتلا . فأخر ما كان مهماً فيها هو جسدها . أهم من هذا كله كانت أنوثتها .. أنوثة حية نابضة دائمة التفجر والتدفق ، أنوثة لا تدرى من أين تنبع وأين تكمن . ابتسامتها ابتسامة أنثى ، لفتها إلى الخلف لفتة أنثى . الطريقة التي تحببها على كتف زميلتها ، إطراقها وهي تدعو أحد المارة ليساعدها في رفع بلاص الماء على رأسها ، طريقة قضمها للقمعة وإمسакها للرغيف ، القلة في يدها ، الماء حين ينسكب في فمها نصف المفتوح ، الزاوية التي تميل بها الكرة ، قرطتها الخضراء الكرومية الوحيدة حين تتعصب بها معوجة قليلاً إلى اليمين مبينة بعض شعرها المسبب الأسود ، غماز تائها حين تظهران فجأة وتختفيان فجأة وتحددان أجمل ابتسامة يفتر عنها ثغر ، ضحكها وكيف تبدأ ثم بقاياها حين تنتهي ، صوتها المصنوع من أنثوية سائلة وكيف تخرجه بمقدار وكيف أحياناً إلى قطرات .. كل قطرة كلمة أو نبرة .. نبرة أنثوية مصفاة تكفى وحدها لتروى ظمأ عشرات الرجال .

وكانت فاطمة تثير الرجال ، أو على وجه الدقة تثير الرجولة في الرجال .. وكأنما خلقت لثير الرجولة في الرجال ، حتى الأطفال . كانت تثير الرجولة الكامنة فيهم فكانوا إذا رأوها قادمة من بعيد أحسوا برغبة مفاجئة في تعرية أنفسهم أمامها ، وكثيرا ما كان بعضهم يقدم على تنفيذ الرغبة فيرفع ذيل جلبابه ويتعمد المبالغة في رفعه . ولا يفلح ضرب أو زجر في نههم عن إتيان هذا الأمر فهم أنفسهم لا يدرون لماذا يعرفون أنفسهم إذا رأوها ..

لذلك ما كان أشد محنة فرج ! كان فرج أخاها وكان مزارعا وحدانيا فقيرا لا يملك سوى بقرته ، ولا يعطيه الناظر إلا ثلاثة فدادين ليزرعها .. ومحاولاته كل عام ليزيد حصته نصف فدان كانت تبوء بالفشل الذريع . ومع هذا فقد كان فرج رجلا في عز نعمة رجولته يأكل في الطقة ثلاثة أرغفة إن وجدت ، ويأتي على قلة الماء في نفس واحد ، وسمانة رجله في حجم الفخذ ، وكان حائرا منغص العيش والسبب أخته ، فقد كانت تحيا معه ومع امرأته ، وامراته ذات الأنف الفاطس والوجه الأصفر كانت طيبة وإن لم تكن طبيتها تمنعها أحيانا من لفت نظر فرج إلى صدر أخته الذي تدعى أنها تتعمد هزه حين تمشي ، أو إلى الكحل الذي لا يفارق عينيها ، واللبن الذي توصي عليه كل ذاهب إلى السوق . ولم يكن فرج في حاجة إلى لفت النظر إذ هو يرى ويسمع ويفور دمه كلما رأى أو سمع ، ولم يكن يستطيع تأنيب فاطمة على شيء .. كانت ترتدى نفس ما يرتديه البنات وتكحل كما يفعلن وتمضغ اللبن كما يمضغن ، ولم يلمحها أحد في موقف مريب ولا ضبطت مرة متلبسة بخطأ ، وحتى حين ادعت زوجته أن السبب في احمرار وجنتيها أنها تحكهما بالورق

الأحمر الذى تصنع منه صناديق الدخان الفرط ، بلل عمامته يومها بلعابه وظل يدعك وجنتى فاطمة حتى كاد يدميها ولم تحمر العمامة ولا حدث لها شئ . ولم يفعل شيئا يومها أكثر من أن صوب إليها نظراته المحمومة المملوءة بالشك وراح يعنفها ويزجرها وفاطمة لا تعرف سببا لنظراته تلك . فهى تعرف العيب تماما وطالما حدثها فرج عنه وعنفها .. وهى لا تفعل العيب وليس فى نيتها أن تفعله بل هى تفضل الموت على فعله ، كل ما فى الأمر أنها كانت تحس بالناس يدللونها ويحبونها فكانت تفعل كما يفعل أى محبوب .. تتصرف بحرية وبساطة وبلا تعقيد . إذا أرادت أن تبسم ابتسمت وإذا ابتسمت كان هذا عن رغبة حقيقية فى الابتسام ، وإذا أرادت أن تضحك ضحكت وخرج ضحكها بريئا نابعا من القلب . وكانت تعرف أن الناس يحبون جمالها فكانت تحرص على هذا الجمال فلا تخرج من عتبة دارهم بوجه غير مغسول أو بشعر مشعث منكوش ، وإذا اشتغلت فى الغيط لبست الجوارب التى تقترضاها من أم جورج زوجة الناظر والتى تصنعها على هيئة قفازات تقى بها يديها من الأفرع وحز الشوك والأغصان . وإذا تكلمت حرصت على أن يخرج كلامها جميلا ليس فيه كلمة نائية أو تعبير قبيح . والناس جميعا أحبابها وأصحابها ، كلهم يحبونها وهى تحبهم كلهم ، ويدللونها وتدلل عليهم ، ويريدونها غير عابسة فلا تعبس ، ويريدونها ضاحكة فتضحك وكل أملها أن يضحكوا لضحكها ويسعدوا بابتسامتها ودلالها . فلماذا يعنفها أخوها ويزجرها ؟ ولماذا هذه النظرات المشبعة بالسبم منه ؟

والحقيقة أن فرج لم يكن يدرى لماذا .. كل ما فى الأمر أنه مشغول عن أخته وأنوثتها الصارخة ، وكل عين تمتد إلى أخته إنما تغور فى لحمه هو

وتدميه ، وكل أمله أن تتزوج فاطمة وتزاح بمسئوليتها بعيدا عنه ، بل بعيدا عن العزبة كلها . ولكن فاطمة لم تكن تتزوج فخطابها قليلون بل تكاد تكون بلا خطاب ، فمن هو المجنون الذى يجرؤ على امتلاك كل تلك الأنوثة وحده ؟ وإذا تزوج ماذا يفعل بها والناس فى العزبة وما جلورها لا يتزوجون ليستمتعوا بالجمال وقيموا حوله الأسوار ، إذ هم أولا لا يخبون لكى يستمتعوا بالحياة .. هم يخبون فقط لكى يبقوا أحياء ، ويتزوجون لكى تعمل الزوجة وتنجب أولادا يعملون . ولهذا ففاطمة باقية بلا خطاب .

والعزبة مليئة بالرجال والشباب ، وفاطمة كأتى بنت فيها تعمل كالرجال تماما وتسرح إلى الغيط وتروح مع الأذان ، وهى — دوناً عن كل النساء والبنات — تثير الزوابع أينما حلت ، ولهذا فإن قلب فرج مملوء بالخوف .. وخوفه يجعله يضحك إذ هو الذى يملأ العزبة برجولته الفارعة وطيبته ضحكا . وهو الذى يملؤها حياة .. ييرطع وراء الرجال ويهز معهم رغما عنهم ويعلمهم التنازل عن وقارهم الكاذب والنزول له فى « الباط » ، ويسابق الشبان فى العوم ، ويخطف القفف من فوق رعوس النساء حتى أكثرهن تحفظا ويجرى ويضحك ولا تشكو النساء ، وفى الأفراح يلبس جلبابه الأبيض ويلف على رأسه الحزام السكرورة ويخلق شعره وذقنه بالمكنة الزبرو ويرقص للعريس ، وينقط للعروسة وللناظر وللخولى وأهل العزبة ، ينقط بالفلوس التى باع بها قطننا سرقة من المخزن أو جوالا اختلسه وهو فى طريقه إلى الشحن ، ويصرف ويفنجر ويملأ العزبة صخباً وضجيجاً . والكل رجالا ونساء وشبابا يخبونه ويعزونه وتعمل أشياء داخل صدورهم وأشياء ، فأخته تكاد تثير طوب الأراض فتنة وأنوثا

والرغبات في صلورهم تكاد تنفجر ، وفرج يأسرهم بطيبته وصداقته وضحكه ، فإذا مرت فاطمة خفضوا البصر ، وإذا لم يحتمل أحدهم وتأوه لكره جاره ..

ولذلك ظلت فاطمة كالفاكهة الناضجة المحرمة لا يقرها أحد ولا أحد يدع الآخر يقترب منها ، والقلوب تنوب حسرة ، وأعصاب الرجال وحتى العواجيز ترتجف رغبة كلما مرت ، ولكن فرج دائما هناك لا بد أن يتردد في أذنك صدى ضحكة عريضة تأتلك من بعيد وتذكرك أنه هناك وأنه عيب ، وتعود حيثذ إلى صوابك فتذهب لتخطف العصر أو تمشي لشرب شايا عند الدكان .

واليوم ضبطوها في الدرة مع غريب ..

والحقيقة أنها لم تضبط يوما فقط ، ما أكثر ما ضبطت فاطمة في الدرة ووراء إسطبل الوسية وتحت ماكينة الدراس مع رجال ، ولكنه ضبط مع إيقاف التنفيذ - فالأيام كانت تثبت أنها شائعات .. مجرد شائعات كان لا بد أن تنطلق وراء فاطمة إذا مرت كما تنطلق الحشرات . وسكان العزبة لم يكونوا أشرارا ولا حاقدين - كانوا في الواقع أناسا طيبين يحرص كل منهم على الآخر مثل حرصه على نفسه ، حتى أوز هم كان طيبا لا خبث فيه تخرج جماعته من كل بيت في الصباح مكاكية مزعردة ، وتتجمع قريبا من الجرن وتأخذ طريقها إلى الترفة في قافلة ضخمة ، ويظل الأوز يلعب ويستحم ويعلم أولاده العوم حتى تنوب الشمس إلى المغيب فتأخذ مئات الأوزات طريقها إلى العزبة ، تدخل من البوابة ويتوجه كل أوز إلى بيته من تلقاء نفسه ، وحتى لو أخطأت أوزة غريرة طريقها وذهبت مع أوزة الجارة ، فما أسرع ما تجذب بابك تطرقه الجارة ومعها الأوزة الضالة حتى قبل أن تكتشف أنت أنها ضلت وضاعت .

وأمام فاطمة ، أهل العزبة رعايا جماها مدهون بحبها ، إذا كان الفرح حظيت باهتمام يفوق ما تحظى به العروسة . ولعل هذا كان السبب في خوفهم الشديد على فاطمة : كانوا خائفين عليها من العيب وكأنهم لا يصدقون أن أنثى جميلة مثلها ممكن أن توجد ولا ترتكب العيب . بل إنهم من كثرة خوفهم عليها حددوا الشخص الذى يمكنه أن يرتكب العيب مع فاطمة .. حددوا غريب بالذات ، وغريب كان ابن عبدون ، وعبدون مع أنه كبير فى السن إلا أن أحدا لا يقول له ياعم .. فقد كان رجلا عصبى المزاج يدمن « المضغة » والقهوة السادة ، وكلمة والثانية وتجده طابقا فى خناقك . حتى الناظر كان يخاف منه ومن خلقه الضيق ويتجنب إثارتة . وعمره ما قال لأحد كلمة حلوة ولكن شطارته كلها تظهر إذا حلت بالعزبة كارثة ما ، حيثئذ يقف كغراب البين على الترفة وقد أمسك بذيل جلبابه من الخلف ويمضى يشتم ويسب ويصق مضغته ويشبع أهل القرية لوما وتأنيا وكأنهم هم المسئولون عن وقوع الكارثة . غير أنهم كانوا لا يقيمون لعصبيته وسبابه وزنا فقد كانوا يعرفون أنه من الداخل أبيض ، فقط طبعه هو الذى يغلب .

أما ابنه غريب فرجال العزبة كانوا لا يرتاحون إليه وكذلك نساؤها ، فقد كان ولدا قليل الأدب فارغ العين يرى قصة من شعره ويظهرها مسببة من طاقته الصوف البيضاء . وسبب ضيق الناس به أنه كان يغوى النساء ، والأدهى من هذا أنه كان ينجح فى الإيقاع بهن .. وفى هذا لم يكن يحترم جارا ولا زوجة خال . كان أسمر فاتح السمرة وبالرغم من قبح خلقه أياه كان وسيما لا تمل العين رؤية ملامحه ، وله طريقة لذينة فى نطق الكلام مع أنه كان قليل الكلام . كان صوته يخرج غليظا بريئا فرحان وكأنما هو مراعى حديث البلوغ . ولم يكن يبدو أهبل كمعظم شباب الأرياف .. كان ولدا

حدقا معتدا بنفسه سريع الفهم فهلويًا نظيف الجلباب يعمل كالمكنة طول النهار ويغنى الماويل ، وعنده عدة شاي ويعزم ويشدد في العزومة . فإذا جاء الليل لا يحتمل المبيت في دارهم ويؤثر النوم فوق كومة تبين الوسية العالية حيث يدفن نفسه ، ويظل يتلنّس أفخاذه وصدّره ، ويحكى لأصدقائه الذين يبيتون معه .. يحكى لهم عن أمور النساء التي هم أجهل الجهال بها والذي هو فيها صاحب الباع الطويل . وكان جريئًا لا يخجل وعينه فارغة .. أول ما ينظر إلى المرأة يبدأ بالنظر إلى سيقانها . ونظراته كانت تترك فيها لمعة سخرية دائمة أو لعلها ضحكة لم تنطلق . كانت نظراته هكذا رغمًا عنه وليس له يد فيها ، ولكن المرأة كانت تحس إذا نظر إليها هكذا أنه يفهم ما يدور بخلدّها ، فإذا كان ما يدور بخلدّها عيبًا وهذا هو الحال في معظم الأحيان ارتبكت وخيل إليها أنه عراها ، وتحاول حينئذ أن تغطي نفسها فترتبك أكثر ، ومن كثرة ارتباكها تقع ويكسبه وقوعها اعتدادًا أكثر ، فتزداد لمعة الجرأة الساخرة في عينيه ويزداد عدد من يقعن له .

ولا بد أن غريب كان فيه شيء غريب ، شيء لم يكن يوجد في بقية الرجال . لعله ذكورة زائدة أو لعله شيء آخر ، فقد كان يكفي أن ترى المرأة من نساء العزبة قفاها أو (ذكة) سرواله وهو يعمل حتى تشهق وكأنها رأت رجلا عاريا . ولم يكن يبالي في وسائله .. كل الطرق إلى المرأة كانت عنده حلالا . في الفرح يحشر نفسه بينهن فيجمدنهن أمامه .. وفي ما كينة الطحين كل شطارته أن يحمل القفّ للنساء ويدقّ لهن القادوس . حتى المريضة لم يكن يعتقها ، ولولا خوفه من بندقية أبو جورج الناظر لحاول في الليل زيارة الست أم جورج ، وكان الناس إذا اشتكوا لعبدون أبيه ثار في وجوههم ولحبط خلقته وقال لهم بفظاظة :

— حداكم إياه . آتى متبرى منه . اعملوا فيه الى تقدرؤا تعملوه ..
وكانوا فى العادة لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا .. فغريب وإن كان قصير
القامة إلا أنه كان قويا كفحل الوسية يستطيع أن يرفع ترس الساقية الحديد
ييد واحدة ويقطع رقبة الرجل باليد الأخرى ، كل هذا وعيناه تلمعان نفس
لمعتها الساخرة .

كان هو أكثر الذكور ذكورة ، وكانت فاطمة أكثر الإناث أنوثة ، ولهذا
كان من الطبيعى جدا أن تقرن الشائعات بينهما . ومع هذا ما كان أبعد
ما بينهما .. ففاطمة كانت تتجنبه لشهرته بقلة الأدب و فراغ العين وكان هو
يخافها عن بعد ، فهو وإن كان ند لخدمة الناظر أو شفيعة الأرملة أم العيال ،
ففاطمة ليست واحدة منهن . إنها فاطمة .. كل النساء كوم وهى كوم .
كان أحيانا يزعم للشبان الغارقين حوله فى التبن أنها تحبه وترسل له
المراسيل ، ولكنه كان أول الساخطين على نفسه من أجل مزاعمه تلك .
كان يعمل فى الغيط كالرهبان ويكتسح النساء بنظراته وذكورته فتخر له
النساء .. وزينة بنات العزبة فى الأفراح والأسواق ، ولكن أمام فاطمة كان
عاجزا كل العجز ، وفاطمة من ناحيته خائفة كل الخوف . حتى إذا قال لها
العواف ودق قلبه آلاف الدقات وهو يقولها كان ردها يأتى مضغوطة لا عافية
فيه ، هى خائفة منه خوفها من العيب وهو خائف منها خوفا من العجز ،
والعزبة سادرة فى إقرانه بها وإقرانها به ، وفرج سادر فى ضحكه وذو صداقته فى
العيون ، وسادر فى اكتساب محبة غريب حيث يكمن خوفه الأكبر ، وكل
هذا يجرى من تحت إلى تحت أما فى الظاهر فالناس لبعضها والعزبة صغيرة
والناس فيها عائلة واحدة كبيرة ، وبيت عبلون ثالث بيت إلى يمين بيت
فرج ، وحتى حوادث ضياع الأوز قليلة .

ولكنهم كانوا جميعا يتوقعون دائما أن يحدث شيء ما ، شيء لا بد أن يحدث .. مثل أن يستيقظوا في منتصف ليلة على طليقة ، أو تأتيهم من الغيطان صرخة تقول : ضبطوها في الدرة مع غريب .

* * *

وقد حدث ..

والغريب أن أحدا لم يفاجأ بما حدث ولم يستكره .. كلهم أخذوا الأمر على أنه شيء مسلم به ، إن كان بالأمس لم يحدث فهذا هو اليوم قد حدث . حتى أطفال العزبة — وللأطفال مجتمعهم هم الآخريين وإشاعاتهم وآراؤهم الصغيرة في الناس الكبار — حتى هؤلاء أحسوا أن فاطمة قد ارتكبت أخيرا ذلك الشيء المحرم الذى طالما حذرهم منه الآباء والأمهات .. ارتكبت العيب .

وعلى هذا حين وجدوا فرج قادما من الغيط من بعيد ، ورأوا عمامته مخلوعة ورأسه عاريا لأول مرة وصديريه مفتوحا وسرواله ملطخا بيقع الطين بينا وجهه مصفر وشاربه يرتجف وعينه في لون الدم .. حين رأوه قادما من بعيد هكذا انزروا في ظل حائط الإسطبل وهم يكادون يحسون بفطرتهم هول الكارثة التى حاقت به . وحين دلف من بوابة العزبة ساروا وراءه عن بعد يتابعونه صامتين حتى وجلوه يدخل داره وينهر ابنه الذى كان يحبط على صفيحة صدئة ، ثم وهو يطلب من امرأته في صوت خطير لا يكاد يسمع أن تأتيه بالجوزة ، ثم وهو يتناولها ويعب من دخانها عبا وينفث من صدره سحبا كثيفة تصدر عن الفرن المبلل بالأحطاب .

وحين بدأ بعض الرجال يتسللون إلى الدار تشجع الأطفال وتسللوا هم الآخريين ، ولكنهم وقفوا قريبا من العتبة يرمقون ما يدور في الداخل خائفين .

ولم يكن يدور في الداخل شيء يخيف .. كان فرج جالسا أصفر لا يتكلم
يرص كراسي الدخان ويشرب . وكان الرجال حوله ساكتين لا يعرفون ماذا
يقولون ، وحتى إذا تملل أحدهم وأهاب به ضميمه أن يقول شيئا يخفف به
من حدة الهول فإن فرج كان يمد له غابة الجوزة ليشرب ويسكت ، فالموقف
ليس في حاجة إلى كلام . فأخيرا جاء اليوم الذى توقعه فرج وظل طول عمره
يتوقعه .. أخيرا حدث الشيء الذى كثيرا ما فكر فيه وغلى الدم فى عروقه وهو
يفكر فيه . كان كلما رأى جسد أخته يتلوى فى الثوب الأسود الواسع
المهلهل ، أو كلما رأى قطعة من جسدها ظاهرة من ثقب الثوب ، كلما
رآها تضحك أو تتكلم أو حتى تأكل كان يحس بصدره يضيق فجأة ويختنق
فيصوب إليها نظرات كالمسامير المحمية ، أو يضحك ضحكه الواسع
العريض الذى لا بد تلمح فيه خوفه الرهيب من شيء لا بد أن يحدث . بل
كثيرا ما حسبها بينه وبين نفسه .. ترى ماذا يفعل لو حدث لا قدر الله
أن ... ؟

وكان شعره يقف كلما حسبها ويعود ينظر إلى فاطمة نظرات تغور بها فى
سابع الأرض ، وها هو الحادث قد حدث وأصبح عليه الآن أن يأخذ موقف
الرجل الأخ ، عليه الآن أن يقتلها ويقتل غريب . يقتل فاطمة أخته التى
حملها وهو يعدى بها المصارف حين كانت صغيرة والتى قالت له أمه وهى
تموت : وصيتك فاطمة يا فرج ، ويقتل غريب .. الكلب الذى آواه وسقاه
على حسابه واحتضنه ، والذى طالما توقع أن يخونه وقد خانته ..

أجل ! الموقف ليس فى حاجة إلى كلام .. إنه فى حاجة إلى دم . كل
ما فى الأمر أنه لا بد من التثبت حتى لا تلتف خطيئتهما حول رقبتة . إنه قادم
على إضاعتهما وإضاعة نفسه وامراته وأولاده فلا بد أولا أن يتأكد ، فليعب

الدخان ويسكت ولينتظر قبل أن يمسك السكين . والقرار بارد لا رحمة فيه ولا أمل .. ففرج من أهل العزب وأهل العزب متهمون أنهم متساهلون في أخلاقهم عن أهل القرى ، ولكنه سيبرهم أن أهل العزب لهم هم الآخرين أصول وأنهم أعدى أعداء العيب ..

أما فاطمة فسرعان ما هلت من بعيد على العزبة وحولها سرب من نسائها وبناتها في أثوابهن القديمة السوداء ورقعهن الملتفة حول رءوسهن ، مكونات كتلة غامقة من السواد لها عشرات الأذرع والرءوس تتحرك صوب العزبة في تصميم خطير وتثير سحابة واطئة من الغبار .

وجرى الأطفال يستقبلون الموكب .. كانت فاطمة في الوسط وكان وجهها أبيض . لأول مرة انقلبت سمرتها الجميلة إلى بياض شاحب . ولم تكن تبدو فاتنة كعادتها ، وكانت تعقد رأسها بشالها الأسود كالحزاني وملاحها لا تتحرك وكأنما هي ميتة أو حالا ستموت .

وحدث ضجة لدى اقتراب الموكب من العزبة وراحت النسوة يتناقشن في أصوات رفيعة حادة كما يتناقش الرجال ، والبعض يشير بتحويدها على بيت الخولى بينما الأخريات يتجدثن عن الأصول وعن أز مكانها الطبيعي هو بيت أخيها . | وحدث الشد والجذب والصراع وأخيرا أدخلنها في بيت الخولى القائم في ركن العزبة ، وبقي الأطفال في الخارج ينتظرون .

أما غريب فقد قالوا إنه طفش واختفى في المزارع وأنه قد لا يعود . ولم يكن أحد في العزبة يدرى ما يحدث بالضبط .. كان جو العزبة قد تعكر فجأة ولم يعد يرى في جوها العكر شيئا . الرجال جميعا كانوا صامتين ، والنساء دعواتهن كانت تنهال على غريب ابتداء من يمجله ويخط عليه إلى طلبهن الملح من الله أن يختصه بداء لا يبرأ منه . ولكن حتى دعوات

النساء الرفيعة هذه لم تستطع أن تحرك قليلاً أو كثيراً من الوجوم الثقيل الذى حط على العزبة وكل من فيها ، الوجوم الذى جعل حتى كلابها تكف عن النباح .

وفى بيت الخولى كانت الحلقة مستحكمة حول فاطمة والنساء ينهلن عليها بالأسئلة ، وطبعاً قبل أن يسألنها كن واثقات أنهن لن يصدقن شيئاً مما تقول .

قالت إنها كانت ذاهبة تحمل الفطار إلى أخيها فرج فى الغيط ، وحين مرت على القناية الكائنة فى حقول الذرة خرج لها غريب على حين بغتة وحاول أن يمسك يدها ويجذبها فقاومت وصرخت . وتسكت فاطمة عن حديثها التائه وتستحثها النسوة على المضى ، فتقول إن الناس جاءوا على صراخها وهرب غريب . ولكنهن لا يقتنعن ويطلبن المزيد فتقول لا مزيد . فيهرزن رعوسهن محاولات أن يترجمن حكاية اليد الممسوكة هذه بكل ما يتسع له خيالهن ، بينما حمى لا ترحم فقد ركبت كل واحدة فيهن لتعرف ما قد جرى وتبأكد . وكلما سكنت فاطمة .. وكلما شحب وجهها وبهت ازدادت حدة الحمى واشتدت . حتى الرجال الجالسون حول فرج بعيداً عن فاطمة وحلقها كأنما أصيبوا هم الآخرين بنوع خفى من تلك الحمى تلمحه فى كلمة خارجة من فم طيب تقول :

— صبركم بالله يا جماعة .. ما يمكن ما فيش حاجة حصلت .

* * *

وشيثاً فشيئاً بآأ الشئ الذى حاول الجميع كتماناه قدر طاقتهم يظهر وكان سهم الله قد نفذ ، الأذهان كلها كانت معبأة ومهيأة ومتوقعة كلها أن يحدث ما حدث : إذا انفرد رجل أى رجل بفاطمة فعليه العوض فيها فما بالك

والذى انفرد بها غريب ؟ من يعمل هنا حسابا لفاطمة أو لرأيها والمقاومة التى قد تبديها ؟ إذا انفردت بغريب انتهى كل شيء . والمهم الآن هو التأكد من أن كل شيء حقيقة قد انتهى . حتى فرج وهو يقرأ ما يعتمل فى ضمائر الناس الخفية كان هو الآخر يريد أن يعرف النتيجة ، لا يعرفها ولكن ليتأكد أن فاطمة حقيقة لم تعد أخته وأنه أصبح حرا يستطيع أن يفعل بها ما يشاء . والنساء — وبالعراة هذا — أكثر جرأة فى هذه الأمور من الرجال ، ولذلك ما أسرع ما قالوها لأنفسهن ولزوجة فرج التى كانت قد تركت الدار وذهبت تعدد على فاطمة وتبكي ، ولعمتها . وحين قالوا لفاطمة نفسها غضب وجهها وبهت بشدة وارتجفت فتحات أنفها وصدرت عن عينيها دمعات قليلة ، أقل من محتويات الليمونة إذا عصرتها وهى خضراء ، وصرخت فيه أن شيئا مثل هذا لا يمكن أن يحدث ، وأنه والمصحف الشريف لم يلمسها . فقلن لها :

— مادام خائفة من الكشف يبقى لازم حصل حاجة :

ومرة واحدة امتلأت خلود فاطمة بدفقة دم ولم تستطع النطق ، هى التى كانت تظن نفسها ويؤكد لها الناس أنها لا تعرف معنى الخجل . ولو أن هذا حدث فى قرية لحاول الأهل أن يستروا على ابنتهم .. ولكن الأمر يحدث فى غربة ، الكل يعرف كل شيء عن الكل ولا داعى للإخفاء . وهكذا أصبح هم العزبة من صغيرها لكبيرها أن تعرف إن كانت فاطمة قد جرى لها ما لا بد أن كان سيجرى لها . وداخت فاطمة حتى أنهم رشوا على وجهها ماء وشمموها بصلة . داخت من هول المسألة ومن إحساسها بأنها متهمة بأعيب عيب وأن جميع أهل العزبة يناقشون أعز خصوصياتها هى الأنثى الملكة الحلوة ، يناقشونه عيانا بيانا وعلى مرأى ومسمع من أخيها

وأهلها ، وكل هؤلاء الذين كانوا يحبونها وتحبهم ويدللونها وتتدلل عليهم .
وطلبت من حلقة النساء أن يرحمها .

وسكتن جميعا ورحن يرقبها بعيون ذابلة كان قد غادرها الشك وامتلاأت
بيقين كالعيون .. ذابل وحزين .

وحيثذ قالت فاطمة بوجه جامد متحجر بينما دفقة الدم التى تصاعدت
إلى وجهها تنسحب وتسقط إلى أقدامها قالت :
— أنا مستعدة .

وفى تلك اللحظة كان فرج قد داخ من كثرة شرب المعسل على الريق ،
وكان رأسه منكسا ويده تسند جبهته ولولا أنه رجل لحسب الناس أنه أرملة
تبكى وتنتحب .

ولم يكن فى العزبة من يفهم فى هذه الأمور إلا صابحة الماشطة وهى لم تكن
ماشطة محترفة . كانت تمتلك ما كينة خياطة قديمة تدار باليد وكانت تخطط
أثواب النساء والرجال على حد سواء . وكانت متقدمة فى السن ولكنها تبدو
صغيرة ووجهها أبيض وشكلها طيب حنون كشكل أى أم ، ولكنها حين
تتكلم يفضح صوتها ما تخفيه ملامحها فتحس أنها امرأة مجربة عركت الحياة
بنسائها ورجالها على حد سواء .. وحيثذ لا تطمئن إليها .

وحين أبدت فاطمة استعدادها كان مفروضا أن يعثن فى طلب صابحة
الماشطة ولكنهن يرددن . فهن يردن معرفة الحقيقة .. وصحيح أن صابحة
تفهم فى هذه الأمور وستعرف حتما كل شئ ولكنها قد لا تقول الحقيقة إذ هى
متهمة فى نظر الرجال والنساء وحتى الأطفال . فهى صحيح الخياطة الوحيدة
فى العزبة وهى التى تفصل للجميع أثوابهم ، إلا أن مسألة وجودك فى
منزلها حتى ولو رآك الناس وأنت تقيس الجلباب مسألة لا يستريح لها
كل من يراك ، إذ من المعروف أن صابحة ليس لديها مانع من أن

تصنع من نفسها وبيتها ستارا قد يلتقى ورائه الرجل بالمرأة حيث هناك سبب وجيه لوجود كليهما معا ، ولكن أحدا لم ير بعينه شيئا . وقد يكون هذا صحيحا وقد يكون مجرد إشاعات باطلة ، ولكن الثابت أن صابحة فيها شك ويمكن أن تعرف ولا تقول ، ويمكن أن تقول خلاف ما تعرف .

وقالت امرأة فرج :

— ما فيش إلا الست أم جورج .

ووافقت النساء في الحال .. فأم جورج هي الست الوحيدة في العزبة ، وهي أيضا الوحيدة المتعلمة التي تجيد القراءة والكتابة ، ثم إنها من البندر ولا بد أن أهل البندر يعرفون كل ما لا يعرف فيه أهل العزب والقرى والفلاحين . وتدافع الأطفال حول الموكب ووراءه حين خرج من بيت الخولى في طريقه إلى بيت الناظر ، ومضى الموكب يتعثر في حزنه وحماسه في طرقات العزبة المليئة بأكوام الأتربة وقش الأرز ، والدنيا نهار والشمس قريبة من الأرض منكسة .. وفاطمة في الوسط لا يزال وجهها متحجرا وعيونها مفتوحة كعيون العميان وقلبها غائص تحت أقدامها ، كلما خطت خطوة أحست أنها تطؤه وتطأ معه كل خجلها العذرى وكل أحاسيسها الحلوة ، أيام كانت طفلة وأيام كبرت وأيام كانت تغنى في الأفراح وتحلم بأن يكون لها فرح وزفة وجلوة ولبلة حنة حيث يترقب الجميع خروجها ترقبهم للملكة ، واليوم هم يترقبون خروجها مئات العيون تنظر لها وتحملق فيها ، مئات .. لا بل آلاف ، الدنيا كلها عيون مفتوحة كالفناجيل لا تنظر إليها وإنما تنظر إلى أخص خصائصها بلا حياء وبوحشية ، وتخرقه وتهتك شرفها ويسيل دمها ويقطر لدى كل خطوة تخطوها ولدى كل حجر تتعثر فيه وهي حافية عارية ذليلة لا يرحمها أحد .

وحاولت صاحبها حكمت أن تجذب الشاش فوق وجهها وتغطيه ،
ولكن فاطمة أزاحت الشاش كاشفة وجهها . ما فائدة إخفاء الوجه
وجسدها كله عريان ؟

والموكب الحزين المتحمس ذو عشرات الأذرع والرؤوس يمضى ووراء ذيل
من الأطفال والكلاب الجائعة ، يمضى ويثير سحب غبار ، ويشتت قوافل
الأوز البيضاء ، ويظهر العصفير والحمام آخذاً طريقه إلى بيت الناظر .

* * *

في ذلك الوقت كان عم ضرغام خفير الجرن يجمع ولا أحد يستمع
إليه ، فالناس قد تعودوا على جمعته .. كان هو الصعدي الوحيد في العزبة
ومن يوم أن جاء وهو يخفر الجرن . وتعدى السبعين وهو لا يزال يخفره ، رأسه
ضخم أسود وملاحه غليظة دائمة التكشير وشاربه الأبيض طويل غزير
كشوارب الكلاب وشعر رأسه أكرت أبيض ، وعرقه يسيل على البدن
بطريقة تجعل وجهه الأسود دائم اللعان وكأنما يعرق زيتا . وكان لا يتكلم
إلا جعجعة لا يفهمها أحد وكأنها هببة كلب ، ولا يجعجع إلا إذا اقترب
أحد من الجرن حتى ولو بمحسنية ، وقد عاش في العزبة ثلاثين عاما لا يعرف
أحدا ولا يأخذ على أحد . الكل يعرف اسمه وهو لا يعرف أى اسم ، كل
ما هنالك إذا كان الواحد منهم بعيدا عن الجرن فليس له شأن به ، أما إذا
اقترب أحد جعجع له حتى يتعد .

ولم تنقطع جعجعة عم ضرغام فقد كان يجمع للغريب . كان غريب قد
عاد من هروبه واختبأ في « حلة » المذرة في الجرن ليقب عن كذب ما يدور في
العزبة ويتنسم أخبار فعلته الشنعاء ووجهه الأسمر قد اسود وطايقته قد كبسها
فوق رأسه بطريقة لا تظهر معها (قصته) وهو خائف جاد نادم متوجس

وكأنما قد أفاق لنفسه بعد غفوة سنين ، وأدرك أن قلة أدبه وفراغ عينه وغوايته للنساء كانت عيبا ما بعده عيب . ولح فاطمة وموكبها وهو في طريقه إلى بيت الناظر وازداد وجهه سوادا ، وبالق في إخفاء نفسه داخل كومة الذرة الحطب وكف عن النظر ..

كان من فرط خوفه من فاطمة وبعدها في نظره قد ازدادت رغبته فيها ، وكلما ازدادت رغبته ازداد بعدها عنه واستحالة وصوله إليها . ولم يكن يريد بها شرا ولم يكن يريد منها قليلا أو كثيرا . كل مناه أن يقول لها العواف مرة فترد عليه بلهجة يحس معها أنها ترد عليه .. عليه هو غريب ، ولكنها لم تكن تفعل ، وكان يعزى نفسه بإيقاع نساء أكثر ومع هذا يزداد رغبة في أن ينال من فاطمة كلمة أو نظرة أو حتى لفظة تلقيا إليه عبر الكتف أو من تحت ثقل المقطف . ولم تكن تلك أول مرة ينتظرها فيها غريب وهي في طريقها إلى غيط أخيها حاملة المشنة وفيها الإفطار تحب في ثوبها الأسود عايقة على رأسها وكأنها برنيطة ، وريحها الحلو يهب على الغيط والشجر والخضرة والترع فيكاد يملأ الجو بعطر كعطر النسيم يوم شم النسيم . لم تكن تلك أول مرة ينتظرها فيها ويراه وهي لا تراه وهو خائف أن تراه ، ولكنها كانت المرة الأولى التي يتمنى أن تراه فيها ، المرة الأولى التي يتمنى أن يلتقي بها وكأن الأمر صدفة ، ويفعل معها ذلك العيب الذي أرقه وأقضى مضجعه فوق تبن الوسية ، عيب أن تقول لبنت ليست أختك أو أمك : ازيك يا فاطمة . فترد عليك بخجل لا ترد به أمك أو أختك ؟

ولكنها ما كادت تراه خارجا من الذرة حتى تجمدت في مكانها وكأنها رأتها عاريا .. كما ولدته أمه ، وكأنها رأت العيب يخرج لها من الذرة .. العيب الذي كواها فرج بنظراته محذرا إياها منه ، وإذا بالمشنة تسقط منها وإذا بها تصرخ بأعلى صوتها ، وإذا بها بالدنيا تنقلب وإذا به يطلق لساقيه الريح ويهيم على وجهه في الغيطان .

وعلى عكس ما توقعت العزبة رسمت الست أم جورج علامة الصليب على صدرها وأبدت أسفها البالغ ورحبت بأن تفعل ما في وسعها لكشف الحقيقة مقسمة بالمسيح الحى أن تجعل زوجها يحبس غريب فى النقطة ويسلط عليه الضابط ليربطه فى ذيل الحصان ويعلقه على عامود التليفون . كانت الست أم جورج معروفة بصلاحها وتقواها وأدبها حتى أن أحدا لم يكن يعرف اسمها الحقيقى .. وكانت ترغب زوجها أبو جورج الناظر على أن يصحبها للكنيسة فى البندر القريب صباح كل أحد رغم تدمره من هذا العمل ، وهو الذى يقضى مساء كل سبت يعب كاسات العرق عند بنايوتى البقال فى القرية المجاورة الذى أحال بقالته إلى خمار . وأم جورج قصيرة بياض شاحبة البياض شعرها مفلفل بالشيب وفى منتصف ذقتها ثلاث نقط موشومة . وكانت تعرف فاطمة وتسمع عنها معجبة بجمالها ، بل كثيرا ما كانت ترسل فى طلبها لتأتى كى تساعد فى عمل صوانى البسكويت الذى يفطر به أبو جورج ولا يرضى سواه . بل أحيانا كانت ترسل لها فقط كى تجاذبها أطراف الحديث وتأخذ من فمها الحلو كل أخبار العزبة النسوية وهى المحرم عليها أن تختلط بنساء العزبة . ولولا فارق السن لأصبحت صديقتها الصلوة .

وأفزع خجل هو الذى أحسنه فاطمة وهى تدلف إلى بيت الناظر لا مطلوبة ولا مرغوبة ، وإنما شرفها معروض على الست أم جورج .. الست التى كانت بالأمس فقط تقيها فى شفتيها بطريقة غريبة وتقول لها إنه لولا الدين لخطبتها لأخيها الذى يعمل صرافا فى البحيرة .

تسمرت فاطمة فى مكانها على العتبة ولكن دفعتها دفعا لا بمجاملة فيه حتى سقط الشاش من فوق رأسها . وتولت أم جورج طرد جورج من البيت وإغلاق الباب الخارجى وباب الحجرة الداخلى وشيش النوافذ

ورزاجها ، وكانت مقاومة فاطمة مقاومة الخجل الفطرى ولكنهن تكاثرن عليها وأرقدنها على السرير بالضغط والجذب وتولت إحداهن تقييد يديها ، وأمسكت امرأتان كل بساق من ساقها ، وامتدت أيد كثيرة .. أيد معروقة جافة .. حتى بقايا الملوخية التى عليها جافة ، وامتدت عشرات العيون الصادقة فى بحثها عن الشرف والمحافظة عليه ، امتدت كلها .. انغرزت وقلبت وتفحصت حتى وهى لا تدرى علام تبحث . وأم جورج وقد تولاهما ارتباك عظيم وكأنها المكشوف عليها لا الكاشفة ، تنهر النسوة بلا فائلة وتطمئن فاطمة بلا فائدة أيضا ، والشد والجذب والصرخات المكتومة تدور فى صمت وفى همس مروع ، وسكون الترقب قد خيم على الحجرة وامتد منها إلى البيت ووصل الصمت إلى رعوس الرجال حول فرج ، وإلى المتناثرين قريبا من اللوار وعند المكنة وفى الغيط ، الذين كانوا يتابعون كل شئ يدور داخل منزل الناظر حتى دون أن يروه .

كل شئ هداً وسكت ما عدا جعجعة عم ضرغام التى لم يكن يحفل بها إلا واحد فقط .. عبدون أبو غريب الذى كان قد أخذ طريقه إلى الجرن وقد رفع ذيل جلبابه من الخلف آملاً أن يتحدث إلى عم ضرغام لينفس عن نفسه ويلعن فاطمة وابنه وأهل العزبة لكائن ما جتى لو كان عم ضرغام .

وفجأة انطلقت زغرودة من الحجرة الداخلية ترددت على أثرها الزغاريد فى المنزل ثم فى الخارج ، والألسنة تردد :

— سليمة إن شاء الله والشرف منصان .

ولحظة فقط رفع فرج رأسه المنكس ، ولأول مرة كان يجرى فيها الدم ، ولأول مرة نطق وقال :

— هاتوها .

وبعد لحظات ومع أن عم ضرغام قد كف عن جمعجعه ، إلا أنه ما كاد يكف حتى كانت العزبة تشهد أعظم ضجة قامت فيها ، عند بئر الساقية القديمة العميق الذى يزيد عمقه عن أطوال ثلاثة رجال يقفون فوق رعوس بعضهم . عند البئر كان عبدون يمسك ابنه غريب من زمامة رقبته ويحاول بكل قوته العجوزة أن يجذبه ليدفعه ويغرقه فى البئر .. بينما عشرات الرجال يمنعونه ويحاولون تهدئة خواطره . وكان عبدون كلما جذب ابنه ووجد نفسه عاجزا عن تحريكه من مكانه ازداد هياجه وغضبه وانصبت اللعنت من فمه كالحمم . وكل من كان يرى عبدون فى موقفه ذاك كان لا بد أن يؤمن أنه حقيقة يريد إغراق غريب فى البئر وأنه جاد فى تنفيذ ما يريد . ولكن كان هناك شئ ما لعله فى طريقة زعيقه ، لعله فى نوع الكلمات التى كان ينتقيها ليستم بها ابنه ، كان هناك شئ ما لا بد تلمحه وتحس معه أنه فى أعماق نفسه غير خجل من ابنه ، بل أكثر من هذا ممكن أن يكون فخورا أن ابنه هو الذكر وأنه هو المتهم بالفتك .

أما فى بيت فرج فقد كانت هناك ملبحة .. كان فرج يضرب فاطمة بالتقصيرة التى يصحن بها البن ، وكانت فاطمة تصرخ وزوجته تصرخ خوفا عليه أن يقتلها ونساء الجيران يصرن ، والرجال كثيرون داخل البيت وخارجه يحاولون منعه بلا فائدة ، وفرج كالوحش الهائج يريد حقيقة أن يخلص على أخته . ولكن ربما فى ضبط قوة الضربات التى ينال بها على فاطمة ، وربما فى البريق الذى يملأ عينيه والذى لم يكن يريق غضب خالص أو فرحة خالصة ، كنت تلمح شيئا .. فصحيح أن فاطمة لم تخطئ وشرفه منصان ولكن لا بد أن يقوم بعمل ضخم كبير قاس يرد به على الآف الخواطر التى لا بد قد دارت فى الرعوس وعلى كلام الناس ، وكلام الناس كثير .

وطبعاً لم يفرق عبدون ابنه ولم يقتل فرج أخته . مالت الشمس للمغيب
كما تعودت أن تميل ، وعاد السارحون في تلك الغيطان يسحبون البهائم
ويحملون عشاءها فوق الحمير ، وبدأت الأدخنة ترتفع من أسطح البيوت
الطين وشقوقها وهبت روائح التقلية والزيت المقلوح تفتح الأنفس للعشاء ،
وصلى الرجال المغرب ، وانتهى صعود النساء وهبوطهن إلى السطوح ،
وفرغن من تببيت الدجاج وعلف البهائم . وما كاد العشاء يؤذن حتى كان
الهدوء الهائل الخالد قد نخم على العزبة من جديد ، وحتى كان كل ما يتعلق بما
حدث قد نوقش وأعيد نقاشه حتى فرغت الجعاب وثقلت الرعوس ..
وبدأت ذبالات المصاييح تخفت وتتوارى ، وبدأ النوم يزحف مع الظلام ،
وبدأت الأجساد تتمدد تعباً لا حراك بها .

وحين أصبحت فاطمة وحدها .. حين نام الجميع وبقيت هي محطمة
مستيقظة بدأت تبكى . لم تكن تريد .. ولكن الدموع بدأت تسيل رغماً
عنها صانعة قناتين لامعتين يصلان ما بين عينيها وأرض « البحرارية » التي كان
فرج قد حكم عليها أن تنام فيها بلا حصيرة أو غطاء ، ثم بدأت تنشج وبدأ
جسمها يهتز ، بل بدأ قفص القراخ الموضوع بجوارها يهتز ويهز القرن والبيت
والعزبة كلها ويكاد يوقظ النائمين . كانت تبكى بكاء من يتألم ألماً لا قبل له
به ، بكاء الذي جرح جرحاً عميقاً وجاء الليل عليه فبدأ يحس بالألم .. الألم
الكاوي الذي لا يرحم .

* * *

وحاول أولاد الحلال فيما تلا هذا من أيام أن يقنعوا فرج بقبول غريب
عريساً لأخته ، ولكن فرج رفض رفضاً مانعاً باتاً ملأهم باليأس .

أما غريب فقد كف حديثه عن فاطمة تماما ، بل كف من يومها حديثه عن كل النساء وحلق قصته وأصبح يصل ، ولكنه كان يضبط أحيانا وهو يحرم حول العزبة ويتوقف عند النافذة المفتوحة على بيت فرج .

أما فاطمة فقد حبسها فرج في البيت ومنع خروجها وشغلها رغم حاجته الشديدة إلى يوميتها . ولم يلق فاطمة هذا في شيء .. كانت عازفة عن الدنيا لا تتردد الخروج ، والحيوية المتدفقة التي كانت تبق في عينيها وخلودها ولفتها كأنها نضبت فجأة ولم يبق لها أثر وتحولت إلى حيوان بليد كخروف الضحية لا تبسم وتكاد لا تتحرك ، وكانت إذا تحدثت خرج حديثها ذليلا فقد كبرياءه وحلاوته والأنوثة التي تقطر منه .

ولكن هذا لم يدم طويلا .. فلم تبق فاطمة حبيسة البيت إلى الأبد ، ولم تظل صلاة غريب ، ولا استغنى فرج عن برطعته وضحكه . إذ بعد أسواق كثيرة وأسواق كان كل ما حدث قد وضعه أهل المعزبة في خزانة النسيان وأغلقوا عليه بالضبة والمفتاح ، وكان أولاد الحلال قد تكفلوا بمصالحة عبدون وابنه على فرج فأصبحوا يتحادثون ويتبادلون العمل ويتزاملون كالعادة . ورنى غريب قصته وعاد يحدث أصحابه عن النساء فوق تبين الوسية ، ولم يكن حديثه .. يخلو من مرارة إذ كانت فاطمة قد عادت إلى الخروج جميلة كما كانت ، معروجة المنديل رافعة ذيل الثوب ، تحضر إذا مشى وتلوخ إذا تلفت وتعاوى كل من يلقاها ، إلا هو — لا عن عمد — ولكن كأنها لا تراه ، وكأنما قد محى من الوجود ..

عادت فاطمة تنظر وتتحدث وتبسم وتطير العقول وكل شيء فيها لم يتغير . ولكن الناس كانوا يعجبون .. فلا بد أن فاطمة قد اكتسبت شيئا جديدا لم يكن لها ، أو أنها لا بد فقدت شيئا أصيلا كان لها .. الشيء الذى

كان يلون وقفها ومشيتها وضحكها ، الشيء الذى يجعلها تبدو ملكا للجميع تحب الجميع ويحبها الجميع . الشيء الذى يكسبها شفافية ونقاء والذى كان يجعلك تحس إذا ابتسمت أنها حقيقة تبسم وإذا غضبت أنها حقيقة غاضبة ، كانت قد فقدت براءتها وأصبحت تستطيع أن تنظر دون أن تنظر ، وتضحك دون أن تريد ، وتريد الشيء وتخفى رغبتها فيه .

بل أصبحت تستطيع إذا مالحها فرج خارجة ذات يوم من دار صابحة الماشطة وأخذها إلى بيته ، وأغلق عليها باب القاعة وأمسكها من ضفائرها وشدد عليها وسألها عما كانت تفعله عند صابحة ...

أصبحت تستطيع إذا ما حدث هذا أن تقول :

— كنت بقيس التوب . اوع كده .

وتجذب نفسها وضفائرها من قبضته بعنف غريب ، وتقف فى الركن تعيد النظام إلى شعرها وتواجهه .. بعيون مشرعة حلوة ، لا تنخفض ولا تخجل .

سره البائع

— ١ —

لم تكن علاقتى بالسلطان تتعدى مجرد نظرة غير محبة للاستطلاع ألقبها عليه كلما مررت به فى ذهابى وإيابى ، نظرة سريعة كأنما لأطمئن بها فقط على وجوده هناك فقد كان علامة رئيسية من علامات البلد ، مثله مثل محطة السكة الحديد وسراية آل ناصف والبقعة المسكونة التى قتل فيها سيد إبراهيم .

ولكننى ذات يوم اضطررت أن أشغل نفسى بالسلطان ، فقد فزت يومها بأول نجاح فى حياتى ونقلت من السنة الأولى الابتدائية ، وفرحتى بالنجاح يومها كانت أكبر من كل فرحة أحسست بها لأى نجاح حدث لى بعد هذا ، فرحة تمنيت معها أن أعود من المدرسة إلى بيتنا على جناح طائر لأزف الخبر إلى جدى الأكبر والد جدى ، وكان عجزوا جدا له ظهر شديد الانحناء وتجاويد تبلو من كثرتها وتناسقها وكأنه ولد بها .

وما كاد جدى يسمع الخبر حتى قال لى فى صوته الجاد :
— أوف النذر حالا .

وكنت قد نسيت حكاية هذا النذر تماما .. فقد حدث خلال العام أن انتابتنى حالة يأس وأنا أذاكر واعترانى شبه يقين أننى مهما فعلت فلن أنجح أبدا ، وكدت أبكى ساعتها ولكننى ذهبت إلى جدى وصنعت له قهوة زائدة السكر كما يحبها ، وحملتها له خلسة (إذ كان يحب القهوة ، وكان جدى

الأصغر ابنه يمنعه عن شربها فكان يبتنا شبه اتفاق : أن أسرق له البن والسكر وننتحى مكانا قصيا نصنع القهوة فيه مقابل أن يحدثنى هو بعد أن يزن رأسه عن (زمان وأيام زمان الحلوة) . يومها حملت له الفنجال ، وانتظرت إلى أن شربه كله شفقة شفقة ولحس كل البن المترسب فى القاع ، ثم سأله إن كان يعتقد أنى سأنجح .. والشئ الغريب أنى كنت متأكدا أن جدى الأكبر لا يعرف ما هى المدارس وما هو النجاح ، ومع هذا فحين قال لى لحظتها إننى سأنجح بإذن الله أحسست أننى لا بد سأنجح وكدت أطير فرحا . غير أنه اشترط لنجاحى يومها أن أنذر للسلطان حامد نصف ستة شمع أوقدها فى ضريحه .

ولم يتركنى إلا بعد أن نذرت النذر أمامه وأعدته مرارا حتى أطمأن إلى أننى لم أخطئ فى قوله .

ولم تكن مشكلة أن أحصل على ثمن الشمع ، فقد كنت ناجحا وطلبات الناجح خاجة فى يوم نجاحه لا تلقى معارضة تذكر .

ولم أغفر لنفسى أن الشيطان يومها راودنى حين ذهبت إلى الدكان ، وفى الحقيقة لم يكن هو الشيطان .. كان « البرطمان » الذى يحتوى على كمية هائلة من « الكراملة » ويرقد على جانب البنك هو الذى راودنى .

وقسمت العزب عربين كما يقولون ، واشتريت بنصف مامعى ثلاث شمعات وبالنصف الآخر « كراملة » .

وبينا كنت آخذنا طريقى إلى حافة « الجبانة » حيث مقام السلطان ، كنت لا أزال أؤنب نفسى .. بل أحيانا كنت أتصور أن السلطان حامد سينتقم للثلاث شمعات التى اغتصبها من نذره بأن يزورنى فى المنام مثلا ، أو يصينى بداء الصفرة .

ولست أدري أكان هذا هو السبب في اضطرابي أم شيء آخر كان السبب ، فقد بدأت أحس باضطراب شديد حين أشرفت على الجبانة ورأيت مقام السلطان حامد من بعيد . وشيء غريب هذا .. فآلاف المرات رأيت مقام السلطان حامد من بعيد دون أن أحفل به ، حتى لون الضريح لم أكن أعرفه ، ولا كان يهمني من السلطان في قليل أو كثير ، ولكنني مع هذا كنت مضطربا حتى فكرت أكثر من مرة في أن أولى الأدبار وأطلق ساقا للريح غائدا إلى بيتنا ، خاصة وأن مسألة النذر هذه لم تكن قد دخلت إلى عقلي . وأنا متأكد أن السلطان هذا ليس له أى علاقة بنجاحي ، وأنه لم يساعدني في الإنجليزى ولا غششني في مسألة القسمة المطولة . والنذور والعفاريث وشم البصل يوم شم النسيم أشياء لم أكن أوثر بها لأننا كنا قد أخذنا في المدرسة أنها بدع ورجس من عمل الشيطان ، ولكن لأن الناس كلهم يأخذونها كالتقضايا المسلم بها ، فكيف أفعل أنا هذا ؟ وما فائدة تعليمي حيثئذ وبدلتى ؟

ورغم شدة اضطرابي فلم أرجع لا خوفا من جدى ولكن خجلا من نفسى وخوفا من أن أبدو أمامها كالجبان ، والظاهر أننا ونحن أطفال نخجل من الفرار أيضا مثلما يفعل الكبار .

وهكذا ظللت أخاف وأتخذى الخوف وأتقدم تدفعنى الرغبة في القيام بتجربة جديدة ، حتى وصلت إلى مقام السلطان حامد . كان قائما في ركن من الجبانة ويجواره طريق مقطوع لا يمر به أحد . وكانت أول مرة أرى فيها الضريح عن قرب ، ولم يكن ضريحاً بالمعنى المفهوم .. كان أهل بلدنا يسمونه المقام ولهم حق ، فلم يكن يشبه من قريب أو بعيد أضرحة أولياء الله في القاهرة ، وكنت قد زرتها مع أبى ورأيت روعتها وسجاجيدها السمكية

الفاخرة وشبايبكها المذهبة ونجفها الكبير والرائحة الغربية الغامضة التي تملأ جوها وتوحى بالرهبة والخشوع والإجلال . أما مقام السلطان فقد كان عبارة عن حجرة قديمة وكأنها مبنية منذ الأزل ، ذهب الطلاء عن كل جدرانها وبقيت الحجارة الحمراء بارزة متآكلة كضلع الميت العجوز . ولم يكن يميز المقام عن بقية المقابر إلا أنه مبنى من الحجر ، إذ أن معظمها مبنى من الطين ، والأغنياء وحدهم هم الذين يطلونها بالجير ويكتبون أسماء موتاهم عليها ، يكتبها لهم عم محمد البنا بطلاء الزهرة ويخطه العاجز الركيك .

ثم فرق آخر بين المقام وبين القبور ، فدونا عنها كانت هناك أشجار كافور طويلة قد زرعت حول المقام . ويبدو أنها زرعت أيضا منذ الأزل فقد كانت طويلة طولاً لا حد له وجنوعها سمكة لا يستطيع عملاق أن يحتضنها ، وكانت مزروعة بنظام حتى بدت كالسور العالى المهيب .

وكان كل شيء يدعوني إلى أن أنتهى من مهمتى بسرعة وأعود .. فالعصر يضيئ والظلال تمتد بشكل مخيف ، وحقول القمح واسعة كبحر أبيض لا شاطئ له ، والناس فيها مجرد نقط غامقة صغيرة لا تكاد ترى .

ودرت حول المقام . لم يكن له سوى باب كالح قديم ونافاذة واحدة يتيمة كانت لا بد هى النافذة التى حدثنى عنها جدى . وتقدمت منها ، ولكن قبل أن أصل إليها فوجئت ببحيرات وأنهار من الشمع المتجمدة قد ملأت الأرض . كان الشمع الذى سال من النور على مر الزمن قد ملأ حافة النافذة وسال على الجدار حتى غطى أحجاره العارية ، ووصل إلى الأرض . وأدركت أن آفا قبلى لا بد قد نذروا للسلطان حامد ، ومن بدى ربما ملايين (والملايين فى لغة الأطفال لا تعنى دائما ملايين) .

وكدت أضحك على سذاجة أهل بلدنا الذين ذابت نقودهم واختلطت بالرمال .. لأجل ماذا ؟ لأجل هذا السلطان الذى لا خادم له ولا مسجد ولا مستجiron .. ولا حتى ضريح يوحى بالاحترام ؟

كدت أعود وأحتفظ بالشمع لنلعب به أنا وأصحابى فى الليل ونوقده ونسهر حوله ، وكم يكون مسليا وجميلا ! بل أثبت نفسى لأننى أضعت القرش فى الشمع ولم أشتريه « كراملة » هو الآخر ، وسمحت لنفسى أن تصنع مثلما يصنع أهل بلدنا الجهلة .. الذين لا يقرعون ولا يكتبون .

ولكننى يومها احتفظت بشمعة واحدة فقط وأوقدت الاثنتين ، لست أدرى لم ؟ ربما تنفيذا لتعليمات جدى ليس إلا ، وربما رغبة فى تقليد أهل بلدنا .. فقط فى تقليدهم ، بل لماذا لا أعترف وأقول إننى بعد أن قرأت الفاتحة ودعوت لجدى ولوالدى ، نذرت للسلطان إن أنا نجحت فى العام التالى أن أوقد له دسته شمع بأكملها ؟

ورغم أننى قلت لنفسى وأنا عائد أننى نذرت الدسته فقط لتفاؤلى بمسألة النذر ، إلا أننى من يومها بدأ السلطان حامد هذا يشغل على تفكيرى بشكل ما .

كان أحيانا يصعب على ذلك الولى الفقير المدفون فى تلك البقعة النائية الموحشة ، وأحيانا كنت أفكر فى المؤمنين به الفقراء مثله الذين يتمنون أمنياتهم الصغيرة الطيبة ، ويرفعون بصرهم إلى السماء وينذرون للسلطان حامد ويحقق السلطان أمنيتهم ، فيسرعون إلى نافذته ويشعلون شمعاتهم ، وليلة وراء ليلة تضىء نافذة السلطان حامد بشمعة .. أمنية صغيرة تحققت وقلب فقير رأى لحظة سعادة ولو لليلة ، وأحيانا كنت أفكر فى الكمية الهائلة من الشمع المتجمد بجوار المقام كيف لم يسرقها أحد ، كيف لا والسلطان

ليس له خادم يحرسه والطريق إليه خال من المارة ، والناس في بلدنا لا يتركون طوبة تنفع ولا حجرا إلا قفلوها وحملوها إلى بيوتهم ؟

أحيانا كنت أفكر في تجريد عصابة من أصحابي للسطو على الشمع ، وأحيانا كنت أخاف ، وأحيانا كنت أسمع اسم السلطان .. لم أكن أسمعه كثيرا ولا مسبوقا بتكبير أو محفوفا بتقديس خطير ، وإذا جاءت سيرته لا يتوقف الواحد من أهل بلدنا عن الكلام مثلا ويقرأ له الفاتحة بخشوع ، ينفض الواحد منهم بلغته وهو يستعد للقيام ويقول :

— معلش .. أهه كله من عضم النهار .. شى لله يا سلطان حامد شى لله .

أو تتراجع الولية من الولايا أمام مقطف السمك وتقول لعم على الصياد :

— بكام ؟

فيقول :

— بعشرة .

فتعود تقول :

— وللسلطان حامد بكام ؟

فيخفض عم على حيثل وجهه ويغلق عينيه وكأنما غلب على أمره ويقول :

— عشان السلطان بتمنيه وعشانك انتى بتسعة .

أو يرفع الرجل جوال الطحين على رأس زوجته ويقول وهو ينتعه :

— إيلك يا سلطان .

وكنت أعرف أهل بلدنا جيدا .. كانت لا تخيفنى منهم وجوههم المكشرة على اللوام ولا ذقونهم التى تشوك أو نظراتهم التى تظن أنها خالية من الرحمة والشفقة . كنت أعرفهم تماما وأعرف أنهم لا يقولون ما يعتقدونه إلا بينهم

وبين أنفسهم ، أما أمام العملة أو الموظفين يقولون كلاما عاليا كثيرا ويحلفون الأيمان المرتفعة المغلظة . وإذا سألمهم الغريب عن شيء قالوا عكس ما يضمرونه . هم لا يخرجون ما في أعماقهم إلا رغما عنهم .. في كلماتهم المتناثرة ، في همساتهم الخافتة وراء ظهور موظفي الحكومة ، في حديث الرجل إلى زوجته بعد العشاء حين يركن بظهره إلى الحائط ويمدد ساقيه على طولهما ويقول :

— ليلة مبارح يا بخت حلمت خير اللهم اجعله خير ، إن السلطان حامد جاني وقال لي انت نايم للظهر ليه ؟ قوم الشمس طلعت ، قوم ..

— ٢ —

وتعودت أن أرتئي لأهل بلدنا هؤلاء ، كنت قد زرت السلطان ورأيت مقامه عن قرب ، ولم أحس برهبة ما ولا اقشعر جسدى أو وقف شعرى أو ظهرت لى كرامة من كراماته . أربعة جدران قديمة تكاد تنهار .. ماذا فيها حتى يستقر صاحبها في أعماق صلورهم وحتى يتحدثوا عنه كما لو كان كائنا حيا ضخما يحيا في مكان ما ؟ ماذا فيه حتى يتحدثوا عنه بلا تكليف هكذا كما يتحدث الجار إلى الجار ؟ وكنت أعرف خطورة هذا الحديث فالفلاحون لا يرفعون الكلفة إلا بصعوبة شديدة ، وإذا خاطبك بلا ألقاب وتحدثوا إليك كما يتحدث الجار إلى الجار كان معنى هذا أن احترامهم لك يرتفع إلى مرتبة التقديس .

والحقيقة بدأت تتأبى الغيرة من السلطان حامد .. بدأت أحسده على تلك المكانة التي يحتلها في قلوب الناس مع أنه لم يكن يملك لهم حولا

ولا قوة . هذه الكمية من الحجارة القائمة عند حافة الجبانة كيف يكون لها كل هذا الاحترام والتقدير ؟

وقلت لنفسى ذات يوم : ربما أكون مخطئا .. وربما هناك شىء داخل المقام هو السبب فى تلك المكانة . ولم أكن — من شدة استخفافى بأمر السلطان — قد اهتممت بإلقاء نظرة على الداخل من خلال النافذة حين كنت أوقد الشمع .. وأنبت نفسى كثيرا لأنى لم أفعل ، وقررت أن أذهب وأرى المقام من الداخل . وحين خطرت لى تلك الفكرة لم أتحمس لتنفيذها فى الحال فلم تكن حكاية السلطان حامد كلها تهمنى إلى تلك الدرجة ، كانت مجرد أفكار تعن لى إذا جاءت سيرته وتشغلنى قليلا ثم تمضى وأعود أنا إلى ما كنت فيه .

غير أننى فى صباح يوم الجمعة سمعت امرأة ماشية فى الشارع تندب حظها وتكاد تولول وهى تقص لكل من تستوقفها من النساء قصة ابنها المريض ، وتختتم قصتها كل مرة بدسته شمع للسلطان إن هو طاب . وكدت أخرج لها وألعتها وأفهمها أن سلطانها حامد هذا لا علاقة له بمرض ابنها ولا بركة فيه ولا يملك حتى أن يمنع البلى عن مقامه . ولكنى لم أفعل بل سألت نفسى بصراحة لماذا يضايقنى شىء كهذا ، وما الضرر فى أن تنذر له نذرا ؟ هل سيمنع نذرها الشفاء عن ابنها إن كان سيشفى ؟ وأدركت أن حماسى كان فقط لأنها ذكرت اسم السلطان حامد ولم تذكر اسمى مثلا ، حماسى كان مبعثه هو تلك المكانة الهائلة التى كنت يوما أحس بالسلطان حامد يحتلها فى قلوب أهل بلدنا .. كنت أخاف على نفسى منها ، وأخاف أن يأتى اليوم الذى أومن أنا الآخر به وأقدسه دون أن أعرف سبب الإيمان به وتقديسه .

وتأكيدا لاستخفافى به قررت أن أذهب فى الحال وأرى مقامه من الداخل وأرى السر المزعوم ، وأشبع بعد هذا سخريه من السلطان وأهل بلدنا على حد سواء ..

ولكن لا أدرى ماذا حدث ، فحين أصبحت قريبا من المقام ورأيت أنهار الشمع المجدد وبجراته أحسست أنى مقدم على شىء حرام ، وكأنتى سأعذب بشىء يخص أهل بلدنا أجمعين وهم غائبون . إحساس اقشعر له جسدى ولم أستطع أن أتغلب عليه وكأنتك فى اجتماع عام حافل وتهم أن تمزق علم المجتمعين ، وعلى هذا وقفت فى مكانى مترددا وقد أحسست لأول مرة أنى فى سبيل إلى القيام بعمل غير مشروع ، وتلفت حولى مرارا مع أنى كنت متأكدا من خلو المكان وأن أحدا لا يفكر فى الهجى إليه خاصة فى الصباح .

ونخفت .

فقد أدركت لحظتها فقط أن السلطان حامد هذا مارد كبير ، والبركة فى أهل بلدنا الذين جعلوه هذا المارد الكبير . فمع أنى كنت واقفا فى مكانى لا أستطيع الاقتراب من النافذة إلا أننى لم أكن أتصور أن المسألة ممكن أن تبلغ هذا الحد وأننى فعلا لا أجرؤ على الدنو . وربما الخوف هو الذى دفعنى إلى النظر إلى مكان السلطان حامد من جديد .. كان كل شىء كما هو فى المرة السابقة .. الحجرة البالية القدم والجدران البارزة الأحجار بغير طلاء ، ولا شىء بالمره يخيف وكل ما أراه يدفع إلى الاستخفاف ، وتقدمت من النافذة متلصصا .. كانت أعلى من قامتى وكان على لآرى ما فى الداخل أن أتشبث بحديدها وأرفع نفسى .

وأمسكت بالحديد .. كان ناعما زلقا من آثار الشمع المتجمد ومرة واحدة رفعت نفسى ثم فى الحال هبطت وقلبى يدق . لم أكن قد رأيت شيئا

غير ظلام فى ظلام ومع هذا خفت ، فالظلام فى النهار وفى داخل السلطان حامد شىء يخيف ..

وكنـت لا أزال أمسك بالحديد فى انتظار أن أجمع أنفاسى وألقى نظرة أخرى ، ولم يكن لدى أية فكرة عما يمكن أن أجده فى الداخل ، ربما المقام خال .. ربما لا شىء غير الظلام .

وبقوة رفعت نفسى رفعة عالية ودرت بعينى دورات سريعة مـذعورة .. ووقف شعرى من الرعب ، ومن كثرة رعبى لم أستطع الهبوط وتجمدت يداى على حديد النافذة بينما أغلقت عينى عن أن ترىا ورحت أصرخ فى فزع وتركـت نفسى أسقط على الأرض وأنا ألهث وأكاد أموت .

لقد رأيت السلطان حامد نفسه فى الداخل.. كان ضخما جدا أضخم من الجمل وله رقبة طويلة جدا وبارزة من جسده الضخم بطريقة مخيفة وتنتهى بكـتلة خضراء كبيرة تلمع فى الظلام . كان السلطان باركا فى الداخل يتلمظ ويكاد يمد رقبته الطويلة ويقضم رأسى .

ظللت مخفيا رأسى فى حجرى وعينائى مغلقتان وأنا لا أستطيع الجرى أو التفكير أو حتى قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ، وحولى آلاف العفارىت التى لم أومن بها قط .. وخدام الفناجين وإبليس ، وشقيقائى اللائى تحت الأرض وكل ما ارتكبته من ذنوب وكل ما سخرت به من معتقدات .

واعتقدت أنى حالا سأموت .. ولكنى عـجبت حين مر وقت طويل ولم أمت ، ثم ضحكـت من نفسى لأنى ظننت أنى سأموت ، ثم فتحت عينى ورأيت أشجار الكافور العالية والحقول الممتدة البعيدة والناس الرائحين الغادين كنجوم النهار ، وكل شىء غير خائف .. وكل شىء يسخر منى ومن خوفى .

والشيء الذى لم أكن أتصور مطلقاً أن يحدث وجدت نفسى أفكر فيه :
لماذا لا ألقى على المقام نظرة أخرى ؟

تطلعت إلى النافذة وترددت ، ولم ألبث أن وجدت دافعا أقوى منى
يدفعنى للإمساك بحديدها من جديد ، ربما الهلع وربما حب الاستطلاع وربما
الاستخفاف بأمر السلطان . كنا جيلا معفرتا كما يقول عنا آباؤنا
وأجدادنا ، والمسائل الغامضة مثل العفاريث وخلافها مسائل تاور على
ألسنتنا فقط وتذكرها ساعة الغرق ، ولكننا لا نؤمن بها فى أعماق قلوبنا .
وكان آباؤنا يقولون عنا هذا لأننا لم نكن نخاف مما يخافونه ، وحتى إذا خفنا
كان خوفنا يدفعنا إلى السخرية بالشيء الذى نخاف منه ، كنا جيلا معفرتا
كف عن لعب الكرة « العميو » بيده وأصبح يلعب الكرة بقدمه . ويمضى
فوق قضبان السكة الحديد المحرمة دون خوف أن يظهر له القطار فجأة
ويدهمه ، وحتى إذا ظهر له القطار كان فقط ينتحى جانبا وقد جهز له فى يده
زلطة يقذفه بها إذا مر ثم يعود يجرى فوق القضبان .

وتبينت أنى كنت على حق ، فالذى كان باركا فى الداخل لم يكن هو
السلطان حامد بكل كان قبو ، والرقبة الطويلة كانت رقبة القبر ، والشيء
الأخضر الذى يبرق كان عمامته .

بل أكثر من هذا كانت الكسوة الموضوعة على القبر كسوة قديمة باهتة
لا تكاد تستطيع أن تبينها من كثرة ما علاها من غبار . وكانت « القراضة »
قد تولت نهش حروف الآيات القرآنية المكتوبة بالقماش فوقها ، وكانت

رائحة العطن تشيع من المكان ، والظلام الرابض تحس أنه ليس ظلاما ولكنه نور قديم من طول ما مكث مدفونا تحول إلى ظلام .

وعدت أدراجي ومعى قطعة كبيرة من الشمع اقتلعتها من الأرض ونفضت عنها الرمال على أمل أن تصلح لشيء ما . ولكنى حين عدت إلى بيتنا احترت ماذا أصنع بها . صنعت منها كرة ثم قلة ، ثم أفقت لنفسي فوجدتني أصنعها على هيئة قبر له رقبة طويلة وعمامة خضراء .

وأعجبني التمثال الذى صنعته للقبر إلى درجة استخسرت معها أن أغويه أو ألقيه وأصبح كل همى أن أحفظ به فى مكان أمين ، وظللت أفكر حتى وجدت أن أحسن مكان له هو طاقة من الطاقات التى تستعمل فى برج الحمام . وكنت أعجب لنفسي طوال اليوم وأستغرب لماذا لم أعد أفكر فى السلطان حامد ، ولماذا يرفض عقلى أن يخوض فى مشكلته . كنت أحس به غريبا عن نفسي تماما وكأنه لم يخطر لى أبدا وكأننى لا أعرفه ولا يهمنى أن أفكر فيه . وأحيانا كان يدفعنى العجب وأحاول أن أرغم نفسي على التفكير فيه فلا أستطيع .

وقلت لنفسي ربما أفكر غدا .

ولكن الغد جاء ولم أفكر فيه .

بل مضت مدة طويلة جدا ، ربما عام وربما أعوام والسلطان حامد لا يخطر

لى على بال .

أتأخذ عقولنا أحيانا كل هذا الوقت الطويل لكى تفكر فى أمر هام ؟ .

لقد استيقظت ذات صباح وأنا أفكر فى السلطان حامد . وكنت أفكر فيه

بطريقة أخرى .. فهل كان هذا السلطان واحدا من أهل بلدنا ؟ ومن أى

عائلة هو إن كان ومن هم أحفاده وذريته من بعده ؟

ووجدتني أسأل كبار المعمرين في بلدنا هذا السؤال ، وأجمعوا كلهم أن السلطان حامد بالتأكيد لا يمت بصلة إلى أحد من بلدنا وربما يكون غريبا ، ولكن أحدا على وجه الدقة لا يعلم .. كل ما يعرفونه أن بلدنا والحمد لله لم ينشأ فيها ولى من أوليائه ولا بنى لأحد من موتاهم مقام .

ولم يتصور أحد ممن سألتهم أية دهشة كانت إجابته تحدثها .

فإذا كان السلطان حامد غريبا فلماذا اختار بلدنا دون سواها ليدفن فيها ؟ ثم بنى له هذا المقام الحجري وكل قبور بلدنا من الطين .. ؟ ومن اشترى الكسوة ؟ ومن صنع له تلك الرقبة الطويلة ووضع فوقها العمامة ؟ ومن زرع هذا الكافور الطويل ؟

أغرب شيء أن المعمرين في بلدنا كانوا يرون أسلتي هذه ويسمعونها ، وأحس أنهم يحسبونني مخبولا لأننى أعجب من هذه الأشياء وكأننى أسأل عمن حفر البحر أو اختار اسم بلدنا أو حدد ميزان النقطة ، لماذا أسألهم عن شيء كان موجودا قبل أن يولدوا .. وشبوا فوجدوه قائما .. ومن المحتمل أنه سيظل قائما إلى يوم الدين ؟

وأنا بدورى كنت أعجب وأظنهم هم المخفون المخبلون ، إذ كيف لم يتبادر إلى أذهانهم أبدا أن يعرفوا لماذا دفن السلطان حامد في بلدنا دون سواها ، ولماذا يبنى له مقام ؟

وكان النقاش بيننا بطول .. أنا بجلبائى الأفرنجى ورأسى العارى ولسانى الذى لا يقف عن الخوض فى أى موضوع ، وهم بلحاهم الطويلة ونظرهم القليل وعرفهم الذى يعرف حدوده ويعرف أين يقف ومتى يسير .. حتى جدى كم صنعت له فناجيل القهوة ، وكم انتظرت حتى يزن رأسه وتعود الابتسامة إلى وجهه ، وما أكاد أفتح فمى أسأل حتى يقول :

— قلت لك ميت مرة فكر في اللى ينفعك انت .. فكر في كتبك .

مالك انت ومال الحاجات دى ؟

وإذا أحسست أنى أوشك أن أثير غضبه أدعى أمامه أنى أقنتعت ، ولكنى لم أكن أقنتع .. فالأسئلة التى كانت تراودنى عن السلطان حامد لم يكن يستطيع عاقل أن يسكت عنها ، كائن ضخم عملاق مثله له فى كل بيت جدار ، وذكره على السنة الناس باستمرار ، ومكانته لا يرق إليها أكبر واحد من الأحياء أو الأموات ، ومع هذا لا يعرف عنه أحد شيئا ولا يريد أن يعرف عنه ؟ أليس هذا أمرا محيرا يدفع إلى الجنون ، أو بالقليل يدفع إلى الغضب ؟

وماذا يدفع إلى الغضب أكثر من أن أسأل واحدا من شباب القرية أو رجالها مثلا ، وأضع أمامه تلك المشكلة المحيرة فيقول :
— أهه شى لله يا أهل الله .

وبدأت أضيق بالسلطان حامد وأضيق أكثر بأهل بلدنا ، وكأنه جمع ثروة من حرام لا حق له فيها ، وكأنهم تنازلوا له عن قروشهم ليجعلوه غنيا ، هكذا بكل سداجة وعبط :

وذات مرة سألت الشيخ شلتوت صاحب الكتاب فلم أظفر منه بطائل ، وكنت أعرف أنى لن أظفر من وراء سؤاله بطائل ، فما سألته مرة عن شىء إلا وصاغ إجابته بطريقة لا تسمن ولا تغنى من جوع . سألته لم يحتل السلطان حامد تلك المكانة الضخمة عند الناس فقال لى :
— لأنه كان رجلا تقيا ورعا .

قلت : إذن أنت تعرفه ؟ لا بد أنك سمعت عنه .. قل لى !

فقال : كل ما أعرفه أنه كان لا بد صالحا وإلا لما كان له مقام ..

قلت : ولكن مقامه فقير قديم ليس كمقام السيدة زينب أو الحسين
قال : المسألة مش بضخامة المقام يا بنى ، المسألة بضخامة المقام عند
الله .

فقلت : ماذا أفعل إذن لأعرف سر السلطان حامد .. ؟

قال : بالوصول .. بذكر الله .

ووجدتني أفكر فيما قاله طويلا مع أن ما قاله لم يشف غليلي ، بل وجدت
نفسى أتردد كثيرا على كتابه ومناقشاتي معه لا تقربنى قليلا أو كثيرا من أمر
السلطان ..

وقلت لنفسى ربما كان صحيحا ما يقوله ، وربما كان سر السلطان حامد
لا يفتح إلا لبعض الناس .. للصالحين ، وربما لو ذكرت الله ووصلت ،
أصل إلى مكان أرى منه السلطان وأرى أمره بوضوح . وبدأت أتردد على
حلقة الذكر التى يقيمها الشيخ شلتوت فى بيته كل ليلة اثنين ولم أهضم
ذهابى إلى هناك أبدا ، وكنت أذهب سرا حتى لا يراى أحد زملائى ويسخر
منى .. كنا نجتمع عشرة رجال أو أكثر أندس بينهم وهم يرمقونى بترحيب
كبير ، إذ أن حلقتهم قد ضمت أخيرا أحد المتعلمين ، والمتعلمون كان بينهم
وبين الدين — على حد قول الشيخ شلتوت بحر من سم ودم . كنا نجلس على
الحصيرة ونستغرق فى التفكير فى الله ، ثم نذكره فى سرنا ، ثم نجهر بذكره ، ثم
نتمايل لاسمه ، ثم يدفعنا الحماس إلى الوقوف ، ويمسك لنا الشيخ شلتوت
المجلس وقد حمى ، وأصوات الرجال الخشنة تتصاعد من صدورهم فى تهارج
باك نجار فى طلب العفو والشجاعة والتوبة ، وقد اندمجت أنفاسهم المتلاحقة
فى صرخة مبسوطة واحدة منعمة تقول : الله . الله . الله .

ولكنى انقطعت عن الذهاب فجأة فقد أدركت أن استغراقى فى الذكر لا يمكن أن يوصلنى أبدا إلى حل للمشكلة ، وعلىّ أنا أن أحلها بنفسى إذا أردت لها حلا .

ثم إننى كنت قد فطنت إلى شىء .. فقد أدركت أن السلطان حامد ليس وليا من أولياء الله فالأولياء يستمونهم مشايخ ، فلماذا يسمونه هو السلطان ؟ ورحت أعجب كيف لم أفطن إلى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة وضوح الشمس من قبل . صحيح كيف لم أفطن إليها ووقفت طويلا أتأمل هذه النقطة وأعذر أهل بلدنا الذين كنت أتهمهم بالعبط لأنهم لم يحاولوا أبدا أن يتساءلوا عن سر السلطان حامد . أحيانا يكون من الصعب بل المستحيل أن نفكر فى أشياء تعودنا ألا نفكر فيها وتعودنا أن نأخذها كما هى : فتعذيب الحيوانات حرام أما ذبحها حلال ، والمرأة تطلق شعرها والرجل يخلق شعره ، ولا تعامل الخافى بمثل ما تعامل به راكب العربة مع أن كليهما إنسان ، وأن يبدأ الواحد فى مراجعة إيمانه بالقضايا المسلم بها مسألة ضعبة بل تكاد تكون مستحيلة .

واعتقدت أن لن يدلنى على حل هذا اللغز إلا الأحمدي أفندى فهو يعرف كل شىء عن كل شىء ، ولا بد أن يكون لديه تفسير لحكاية السلطان الذى له مقام مع أنه ليس من أولياء الله . كان الأحمدي أفندى أول من ليس البدلة والطربوش فى بلدنا ، وأول من ركب القطار وسافر إلى القاهرة ، وأول أفندى لم يعمل فى الحكومة واشتغل رأسا فى البنوك والشركات . وكان قد

تعدى الثمانين وترك العمل نهائيا .. وأقام في البلد على حس أفدنته القليلة ، وكنا كثيرا مانصادفه سائرا في البلدة بقامة معتدلة لا اعوجاج فيها ولا انحناء . وقد استبدل بالبدلة جلدا با أبيض نظيفا له جيب على الصدر ، ولكنه لم يتنازل عن الطربوش ولا عن ساعته ذات الكتينة التى تمد من عروة الجلباب وتنتهى فى جيب الصدر .

وكنا نحن الصبية والأولاد إذا صادفناه مارا ننتحى جانبا تأدبا ولا نجرؤ على النظر فى وجهه إلا من بعيد .. وجه قد اكتسى من طول ارتداء البدلة والطربوش ملامح جادة متزنة ، وشارب دقيق معتنى بكل شعره فيه ، وفم مطبق لا ينفك ، وأصداغ غائرة لا تسندها أسنان .. وكل شىء فيه جاد ، كلامه جد وزعيقه جد وهزله جد أيضا ، ولم يكن يضحك إلا إذا تحدث مع العمدة . وكانت جراءة كبيرة منى أن أذهب وأسأله فلا يليق بمثل أن يخاطب الأفندية كبار السن من أمثاله ، تلك قضية أخرى مسلم بها فى بلدنا . وانحنى الأحمدي أفندى ليضع أذنه ذات السمع الذى بدأ يثقل بجوار فمى الذى كان يتكلم فى تردد ولعثة وخفوت .

وكلما ألقىت عليه السؤال قال :

— إيه ؟ بتقول إيه ؟

فأعيد السؤال ..

وأخيرا أدركت أنه سمعنى فقد اعتدل فى وقفته وأمسك بعصاة ذات العقفة بعناية ، وحدق فى بعينه الضيقتين الغامقتين اللتين لو كانتا عيني لما استطعت أن أرى بهما أبدا . واشتد ارتباكى .

ولم أنظر إلى غير كتينة ساعته التى أدركت أنها بفرعين وأن بينهما حلية ذات بلورة خضراء ..

حَدَّقَ فَيَّ طويلاً حتى فكرت أن أتركه واقفاً في مكانه وأجري ولكنه قال :
— براوة عليك يا ولد ! جدع اللى فكرت في دى .. أنت ابن مين
يا شاطر ؟

وازداد ارتباكى واضطرابى وأنا أشرح له ابن من أنا ومن أين جئت ،
وحيث قال :

— بتسأل السؤال ده ليه ؟

قلت في تردد وهو يستعيد كلمائى كلمة .. كلمة :

— علشان أعرف هو سلطان والآولى .

وقلب عصاه فوضع العقفة على الأرض وأمسكها من أسفلها وهو يقول :
— لاولى ولا سلطان ولا ديالولو ، اوع تصدق الكلام الفارغ ده ...
سلطان حامد إيه ؟ أنا اعرف السلطان حسين سلطان مصر الله يرحمه
وبحسن إليه ، أعرف السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين ، أعرف
السلطان الغورى أعظم سلطان فى زمانه .. إنما سلطان حامد دا إيه ؟ دا
حتى اسمه ما يتفعلش لواحد سلطان .. ده تلقاه صعلوك ولا كان ولى
ولا خلافة . دا انا اسمع انه كان بيدى عهود للنسوان فى أوضة ضلمة ، وكان
ما يدبش العهد الا وهو شارب قزازة كان ييملى نصها سبرتو ونصها خل
علشان يبقى طينة مطينة . إنما انا مبسوط منك .. انت فى الابتدائية ؟
أخدتى انجليزى لغاية فين ؟ وبتاخدوا أجرومية والآلا ؟ أنا مبسوط منك .
انت باين عليك ولد نبیه . سلم على ابوك . قول له جدى الأحمدي أفندى
يسلم عليك .. ح تقول له جدى مين ؟

ولم يتركنى الأحمدي أفندى يومها إلا بعد أن سألتنى فى العربى والإنجليزى
والأشياء والصحة وأثبت لى أن علمنا لا يساوى قلامه ظفر بالقياس إلى العلوم .

أيام زمان .. وفي النهاية أوصاني أن أطرد من عقلي حكاية السلطان وإلا فإنه سوف يشكوني إلى أنى حين يقابله .

ولم أطردها من عقلي بل كبرت وأصبحت مشكلة عويصة . هذا الإنسان الغريب الذى ليس وليا من أولياء الله ، لماذا خصه أهل بلدنا بهذا التكريم ؟ ولماذا بنى له مقام ؟ وكيف احتل تلك المكانة الهائلة في صدور الناس دون أن يعرفوه ؟
هل هو السلطان ؟

وإذا كان سلطانا فعلى أى شيء كان سلطانا ؟ ثم إن كلمة سلطان كلمة كبيرة تكاد تساوى كلمة الملك .. فكيف يدفن سلطان كهذا في بلدنا ، بلدنا الصغير الذى لا يعرفه أحد ؟ لماذا بلدنا بالذات ، وكيف يكون مدفن السلطان متواضعا إلى هذا الحد ؟

— ٥ —

وعلى الرغم من غرابة المشكلة وضخامتها فإنى لأعجب لنفسى كيف كنت أحيانا أنساها . كنت إذا فكرت فيها فكرت فيها ، وإذا نسيتها ، وإذا فكرت فيها آليت على نفسى ألا أفكر في غيرها ما حييت ، وإذا نسيتها ذهبت عن بالى تماما وكأنى لم أعرفها قط .

وأول الأمر كانت حين نخطر لى ولا أجد لها جوابا شافيا كنت أحتقن بالضيق وأحس أنى أريد أن أقتل نفسى ، ففي تلك السن لا نحتمل أبدا أن يبقى السؤال إذا عَنّ لنا بلا جواب . ولكن الضيق إذا زاد عن حده ينقلب إلى ضده . وكان ضيقى قد زاد عن حده حتى بدأت أنا الآخر أفضل طريقة

أهل بلدنا وأكد آخذ السلطان حامد كالقضية المسلم بها ، ولا أهم به أو بقضيته إلا كما يهتم أهل بلدنا بها ، ولا يكاد يخطر لي إلا إذا مررت على الجبانة مثلا ولحت مقامه رماديا وحيدا بعيدا ، أو إذا وقع في يدي قرش مكتوب عليه ضرب في عهد السلطان حسين ، أو كان أحيانا يخطر لي فجأة وبلا سبب وكأن عقولنا تجتر أحيانا ما تختزنه فتعيده إلى وعينا في ساعات لنكمل فحصه وطحنه . ولكن ذات يوم عثرت على شيء مذهل غريب زاد المشكلة تعقيدا . فقد كان لنا نحن تلامذة بلدنا فريق محترم لكرة القدم .. فريق أول وفريق ثان ولم أكن في كليهما . كنت شغوبا باللعبة ولكنى كنت أفضل التفرج ومراقبة اللاعبين .. ولهذا كنت أرافق فريقنا إذا ذهب ليلارى فريق بلدة أخرى . وكانت مباريات رسمية حقيقية ، نرسل « باصة » مكتوبة وموقعا عليها من رئيس الفريق ومدرسه ، ويأتى الرد مكتوبا أيضا وفيه تحديد اليوم والساعة والمكان . وفي اليوم المحدد (غالبا صباح الجمعة) يخطط الملعب ويشترى اليوسفاندى والبرتقال للهاقيم ، وترسل الأحذية القديمة منذ الصباح الباكر إلى الجزمجي ليصلحها ، وتنفخ الكرة عند العجلاني بقرش وتطلى بحبة طماطم لكي تبدو جديدة ، ونستعد للمباراة .

وفي يوم الجمعة ذاك كنا قد ذهبنا لللاعب بلدة بينها وبين بلدنا مشوار . وكالعادة كان المكان الذى اختاره فريقها للعب قريبا من الجبانة ، فنادراما تجد فى قرانا مكانا فسيحا مستويا يصلح للعب إلا ذلك المكان الذى يقع على حافة الجبانة والذى يستعمل كجرن فى أيام الدراس .

وشرات أحد لعبتهم الكرة شوته « بوز » أرسلتها عالية بعيدة تخطت نطاق الملعب والجبانة واستقرت فوق بناية حجرية صغيرة كانت قرية من المزارع . وفوجئت بأحد أفراد فريقهم يشتم اللعيب الذى شات وهو يقول :

— دلوقتي مين ح ييجيها من فوق السلطان حامد ؟

وتركت تتبعى للمباراة نهائيا .. وما كاد يأتى الهافتم حتى ذهبت أسأل أفراد الفريق الذى كنا نلاعبه . ومن كلماتهم المقتضبة اللاهثة عرفت أن بلدهم فيها سلطان حامد آخر له مقام يشبه إلى حد كبير مقام السلطان حامد فى بلدنا ، وله أيضا نافذة يسيل منها شمع أبيض متجمد ويصنع أنهارا وبحورا فى الأرض ، وهو الآخر تنذر له النور ويستعان يده وتخفّض من أجله الأسعار . وسرعان ما اكتشفت خلال مباريات أخرى وأسئلة واستقصاءات بلا مباريات أن هناك سلاطين آخرين يكاد يكون لكل قرية فى إقليمنا سلطانها الخاص .

وكان هذا أكثر من أن أستطيع أن أفكر فيه أنا وكل بلدنا مجتمعة . وما قابلت إنسانا سواء كان من بلدنا أو من غيرها إلا وسألته .. والشئ الذى كاد يفقدنى عقلى أنهم جميعا كانوا يأخذون الأمر بهدوء وبساطة ويستطيعون النوم بعد أسلتي ، بل ويتناولون الطعام ويضحكون .. وكأن من الطبيعى أن يوجد لكل قرية سلطان له اسم واحد هو حامد ، سلطان خاص بمقام خاص ، سلطان لا يعرف أحد كيف دفن ولا من بنى له المقام ، سلطان شيطاني استيقظوا ذات صباح فوجدوا مقامه منتصباً عند حافة جبانتهم ووجدوا مكانته سامقة فى أذهانهم ..

كل ما ظفرت به كان إجابات غامضة تزيد من ثورتي وعجزى وهياجى ، فمن قائل إن هذا حدث من قديم الزمان ولا أحد يعرف سره ، ومن قائل إنه سلطان يمت بصلة القرى إلى أنى زيد الهلالى سلامة ، ومن قائل إنه سلطان واحد حقيقى ولكنه كتب فى وصيته أن تصنع له مدافن فى بلاد عدة يدفن فى واحد منها فلا يستطيع أعداؤه أن يعثروا أبدا على جثته .

ومن قائل إن السبب في هذه اللخبطة كلها هي الحكومة وهي وحدها
المسئولة .

من أى ملة هو ومن أى دين ؟
الله وحده يعلم .

لماذا تحبونه وتقديسونه وتنزلون له النذور إذن ؟
من يدرى ربما كان ذلك لحكمة تخفى على البشر .

ونخل جسدى وبدأت ألوان كثيرة تتابع أمام عيني إذا وقفت ، وأحيانا
كنت أكلم نفسى ، ونظرت فى المرأة يوما فكنت لا أعرف نفسى .

وخفت ولعنت السلطان ولغزه واليوم الذى قدمت له فيه النذر . خفت
أن أموت .. وأقسمت ألا أعود أفكر فيه . جعلنى أئى أقسم أن أمنع نفسى
من التفكير حتى ولا بعد أن أخذنى أئى إلى الحكيم وقال لى الرجل السمين
الطيب وهو يمسك يدى الناحلة بكفه الطرية التخينة الدافئة :

— مالك يا بنى ؟

وخفت أن يعتيرنى مجنوناً إن أنا قلت له ويرسلنى إلى السراية الصفراء فقلت :
— ما فيش .

وفحصنى فلم يجد شيئاً ، ولكنى انتهزت فرصة خروج أئى وخفت أن
أجن إن أنا لم أقل له ، فترددت وأنا أسأله إن كان يعرف حلاً لهذا اللغز ،
وسألتى ما هو ذلك اللغز ؟ وقلت له كل شئ وختمت كلامى بأن
ما أمرضنى هو أئى لم أجد حلاً ولا تفسيراً .

وأطرق الرجل بوجهه السمين حتى تفرطح لغد الدهن المتهدل من
عنقه ، ثم رفع رأسه ولم ألمح فى وجهه استخفافاً ولا تكديماً . كل ما حدث أنه
رفع لى يده وقال بوجه جاد :

— دهل إيه يا بنى ؟

وحرك أصابعه فقلت :

— صوابك .

— كم صباع ؟

— خمسة !

— أنت متأكد ، عدّ تانى .

ومع أنى كنت متأكدا تماما إلا أنى عددتها فعلا ووجدتها حقيقة خمسا ،

فابتسم الرجل وقال :

— طب اوجد لى حل للغز ده . اشمعنى الواحد له فى كل يد خمس

صوابع بس ؟ ليه ما يكونوش ثلاثة وليه ما يكونوش ستة ؟ اشمعنى خمسة

بس ؟ جاوبنى .

ولم أستطع إجابته . وكان أبى قد حضر فشيّعنا إلى الباب وهو يضع يده

ذات الأصابع الخمسة على كتفى ويقول لى :

— يا بنى فيه حاجات كتير فى الدنيا دى مالهاش تفسير ، فاشمعنى

نقيت حكاية السلطان حامد عشان تموت نفسك عشانها ؟ .. علشان

تلقى لها حل لازم تفكر وعشان تفكر لازم تكون عايش وعشان تعيش لازم

تاكل .. كل .

وظللت أكل حتى أبطلت التفكير وحتى نما جسدى وكبرت ، وتركت

مدارس ودخلت مدارس ونسيت كل شئ عن حكاية السلطان كعادتنا

حين ننسى إذا كبرنا كل ما أرق تفكيرنا ونحن صغار .

بعد سنين كثيرة وسنين كنت في إجازة في البلدة ذات صيف، وعدت إلى البيت بعد المغرب فوجدت رجلا غريبا جالسا في وسط الدار يلثم لقم العشاء بسرعة وتوحش .

ولم أستغرب لوجود الرجل فقد قلت إنه لا بد واحد من ضيوف جدى الغريبيين ، وكان جدى رغم مضى كل تلك المدة لا يزال عجوزا كما هو ولا يزال يزاول هوايته المحبتين .. شرب القهوة الحلوة خلصة واستضافة الغرباء . وكانت هوايته الأخيرة هذه مبعثها حبه الشديد للحديث .. كانت لذته الكبرى أن يجد مستمعا ليحكي له أو يجد حاكيا لسمع له . وكان ساخطا على بلدنا التي لم يعد فيها أحد يحسن الكلام . وفي النهاية إن من يحسنون فن الحديث قد ماتوا خسارة وتلاوهم التراب وتركوا جيلا كاليهايم المكمنة لا يجيدون الكلام وكأنه بفلوس . ولهذا كان جدى شغوقا بكل غريب يهبط إلى بلدنا ، وكان نادرا ما يهبط إليها غريب .

وما كان أسعده حين تيلفت للسلام بعد صلاة العشاء في الجامع فيلمح بين صفوف المصلين غريبا ، فعادة الغرباء إذا هبطوا القرى أن يذهبوا إلى الجامع حيث فرص الاستضافة أكثر ، وحيث يمكن المبيت إذا لم يجدوا المضيايف الكريمة . وكان جدى ما يكاد يلمح أحدهم حتى يسحبه من يده إلى بيتنا ، وكم من المشاكل كانت تنشب ولكن كان لا بد أن توقد النار في النهاية ويتعشى الضيف ، وتوشوش كنكة القهوة على مهلها في النار ، ويتكى جدى على مسندين ويخرج صندوق « المضغة » ويروح يلوك أوراق

الدخان التى قضى ساعات كثيرة من اليوم يدقها فى الهون ويضيف إليها التوابل . ولا بد أن يحضر جدى للضيف كيفه — سجاثر إذا كان يدخن — وجوزة إذا كان من كيفه المعسل ويبدأ بهذا الكلام .

وغريب أمر هؤلاء الناس الذين كانوا يفلدون على بلدنا ، إذ هم فى العادة لم يكونوا يزورونها لقضاء عمل معين . هم فئة عجيبة من الناس تلف القرى وتقضى فى كل قرية ليلة ومعظمهم لا يجيدون حرفة ما ، أناس هائمون على وجوههم هكذا أو كما يقولون سائرون بلاد الله لخلق الله ، بعضهم لصوص تابوا وبعضهم عمال من المدينة عاطلون وبعضهم عندهم لوتة وكثيرون فلاحون أفلسوا من كار الفلاحة الشاق ولم يوقفوا إلى عمل آخر ، ولكنهم يتفقون جميعا فى أن لكل منهم قصة وقصة فى أغلب الأحيان رهبة دامية . أزواج عشقت زوجاتهم عليهم وطردتهم بعد ما جردتهم من كل ما يمتلكون ، أناس يقولون إنهم محكوم عليهم بأن يظلوا تائهين فى بلاد الله هكذا إلى أن يحين أجلهم . وتسأل عن حكم فيقولون هو ، فتقول من هو ؟ فيقولون : هو والسلام . أناس تلمح فى عيونهم نظرة حائرة تائهة غير مستقرة .. نظرة كلب ضال .. نظرة من لا يعرف له بيتا ولا أهلا ولا أحدا وراءه يهيمه أمره ، نظرة من لا يعرف إلى أين المصير ولا يهيمه أبدا إن كانت الشمس ستشرق مرة أخرى .

ولعلنى ورثت تلك الهواية عن جدى ، ولكن متعتى الكبرى أنا الآخر كانت أن أرى بجواره إذا جاء الغريب ولا تستطيع قوة فى الأرض أن تنتزعنى من مكافئ أو تمنعنى من سماع حديث الغريب أو تأمل هيئته أو قراءة ما يبدور فى وجهه .

تلك الليلة أيضا جلست أهدق في الغريب الجديد . كان يرتدى جلبابا قديما من العبك وعمامة حمراء فيها قطعة سوداء من الخلف ، ولم يكن مظهره يدل على حيرة أو جنون . عيناه فقط كانتا مطبقتين على اللوام لا يفتحهما إلا حين يتكلم حتى إذا ما سكنت أطبق أجفانه في الحال .

وكانت لجدي طريقة ساحرة في بدء الكلام وفك عقد اللسان .. فهو يظل ساكنا حتى يتعشى الغريب ويشرب شايه أو قهوته ويأخذ أنفاسا من الدخان ، وغالبا ما كان الرجل يتكلم بعد هذا من تلقاء نفسه دون حاجة إلى سؤال . ومعظم هؤلاء الغرباء إذا تحدثوا كانوا لا يبالغون ولا يكذبون وكأنهم يدركون أنها ليلة .. مجرد ليلة ، وأن المستمع رفيق طريق .. مجرد رفيق طريق . ومهما كان في المبالغة والكذب من روعة فلا شك أن أروع شيء عند الإنسان أن يتاح له ذات مرة أن يقول الحقيقة دون أن يجر عليه قولها مسؤولية أو متاعب .

قال الرجل إنه من الفيوم وأنه ذاهب إلى الشام في حب الله ، وأنه سائر على قدميه خمسين يوما وأمامه مسيرة مائة يوم بإذن الله . ولم يكن حديثه مسلما .. كان يتكلم ثم يصمت ويفلق عينيه دون أن ينتهي الكلام .

وبدأ جدى يتشاءب ، وكنت لا أستطيع الكلام فجدي كان قد نبه على ألف مرة ألا أفتح فمى إذا كان أحدهم يتكلم وأن على أن أجلس فقط وأستمع .

وكثيرا ما كان يؤدي الحديث إلى سكوت .. ويطول السكوت والنار قد تحولت إلى جمرات ، والجمرات غطيت بطبقة رقيقة من الرماد ، والليل ساكن ونقيق الضفادع يملاً الليل بنغمة منظمة عميقة كأنه شخير الأرض التي نامت وراحت في النوم .

وفي نوبة سكوت طويلة أطلقت السؤال الذى أرقنى طويلا فسأله :
— لماذا العمامة الحمراء ذات القطعة السوداء من الخلف ؟
فقال :

— لبسنا كده .

ورأيت جدى يعتدل وينفض عن نفسه النعاس ويسأله باهتمام :
— أنت من أنهى طريقة وده لبس مين ؟

وفتح الرجل عينيه وقال :

— احنا مش طريقة .. إحنا ولاد السلطان حامد مالناش طريقة ..

وبدت لى إجابته عادية جدا لا تستدعى حتى مجرد التعليق .

ولكنى فى اللحظة التالية كنت أنتفض .

وجلست قرافيصى وأمسكت الرجل من يديه وأنا أستحلفه أن يروى لى

كل شىء عن السلطان ..

واستمع لى الرجل وهو يحرق ناحيتى بعينيه المغلقتين حتى خيل لى من

طول ما جلس أنه بلا حراك ، ولكن بعد أن انتهت رفع رأسه وواجهنى ..

كانت عيناه محمرتين ولكنه لم يكن يبكى وصرخ فى فجأة :

— وتهجم على السلطان بالشكل ده ليه ؟

وأفهمته بخفوت أنى لا أتهجم ، أنا فقط أسأل .

وعاد يقول بغلظة وغضب :

— وانت مالك وماله ما تخليك فى حالك وتسبب الناس فى حالها .

وأجفلت ..

وقال جدى :

— مافياش حاجة ياسيدنا دا يسأل .. هو السؤال حرام ؟ قول له .

وفجأة أيضا سكّت الرجل وسقط رأسه على صدره وهو يقول بصوت
باك وكأنه يؤنب نفسه :

— أبوه أقول له .. أقول له .. أقول له على حبيبي السلطان دا كان يا بنى
راجل مبروك .

فقلت بأنفعال :

— مبروك إزاي ؟ له معجزات ؟

فقال :

— مبروك .. ما تعرفش يعنى إيه مبروك ؟ آمال افندى إيه بقى ؟ الى
شتت العدوين مايقاش مبروك ؟ بقى الى هزم الكفار مايقاش مبروك ؟
آمال انت الى مبروك ؟

فقلت وأنا ألث :

— مين العدوين دول ؟

فصرخ فى :

— مانتش عارف مين العدوين ؟ حد ما يعرفش العدوين ؟ دا أبو باع
طويل ومدد واسع هو الى هزمهم . يا أبو مدد واسع شالله ! يا أهل الله
شالله ! يا سلطان حامد يا هازم الكفرة مدد يا حبيبي يا سلطان . مدد على
طول الماداد ماداد .

وكان صوت قد ارتفع حتى قارب الأذان ومضى يقول وحنجرته الكبيرة
تتلاعب هابطة صاعدة بارزة كالورم من رقبته الطويلة :

— ماداد يا سلطان يا أبو مدد واسع .. ماداد على طول المدد .. ماداد
يا أبو مقامات عالية فى مصر وسوهاج وأشمون وكل البر ، الناس لها مقام واحد
وانت ليك ألف . يا حبيبي مداد .

ولم نجزؤ على قطع الروحانية التى انتابته وكان واضحا أنه لا يهلوس كما يفعل المجاذيب فى الموالد ، كان يبدو صادقا ويكى بكاء حقيقيا .
وحين هدأ واطمأنت إلى أن هدوءه دائم عدت أسأله .. وأدهشنى أنه راح يخبينى كالمغلوب على أمره وبصوت يخفل بالندم والتوبة ، ولكن إجابته لم تشف غليلي وقال شيئا كهذا :

— لما الغزاة هجموا على مصر قام لهم السلطان حامد وأصحابه ، وقال لهم والله ما تدخلوا إلا على جثتى .

بصوا العدوين لقوه بمجلاية استهتروا به ، طلع له واحد منهم ورفع عليه سيفه شد منه السيف وتناه . جه العدو يزقه فحس أن الجبل يتحرك وهو لم يتحرك عن مطرحه قيراط . طلع له عشرة يزقوا فيه ما ينزق . بص قائدهم لقى رجله غارزة فى تراب البر ورأسه محصلة عند عنان السماء ويقول : والله لو جبتوا قد جيشكم ده آلافا ما تقدر جيوش الدنيا كليتها تلحلحنى عن تراب البر . فضلم يفكروا يعملوا إيه فى غريمهم ده . نط عجوز منهم وقال لهم أنا لفيت الطريق يا رفاقة وعرفت أجيب داغه . قالوا ازاي قال دا جسمه طاهر ما يآثر فيه السيف طول ما هو طاهر ما ياخذ السلاح فيه إلا لما يتنجس . قالوا ازاي قال أنا الكفيل أنا ح بول لكم على رجله أنجسها والشاطر اللى ورا بولى يضرب بالسيف . وقف العجوز النجس يبول على رجله ومن وراه سيف غدار ضرب ضربة طير الرجل . قال لهم سلطاننا حامد وإيه يعنى ... دى رجل راحت ولسه ليه رجل . ورجع خطوة . وبالطريقة هيأها قطعوا له إيد ، ضحك لهم وقال : ماله لى إيد ، والله يا كفار يا عدوين لاوريكم ولم أخلى فيكم إيد . وفضل العجوز النجس يتبول والسيوف وراه تندب ، وجسمه الطاهر فى كل بلد إن دارت فيها الحرب يتقطع والى غفل عنه

العدوين إن كل حته انقطعت كانت بتكبر وتبقى راجل يحارب الكفرة ويهجم على العدوين ويقول أنا ابن أبونا حامد .. أنا السلطان .. أنا الى ح وريكم نجيم حمرا في عز الضهر . وقطعوه قطع ملايين وكل قطعة بقت راجل ، ولما حصلوا راسه كانوا حصلوا الشام وكانوا ولاده بقم آفات قاموا الى العدوين ، وكل واحد يتلم على واحد ويشيله من فوق راسه ويرميه في قاع البحر . ولما خلص العدوين وانتصف البر قال نحملك يارب وطلع منه سر الإله على طول .

ونام الرجل فجأة .

وجدت رأسه يسقط على صدره وشخيره يتصاعد بلا سابق إنذار . ولم أكد أستعيد حكايته لأفكر فيها وأستعيد التاريخ لأخمن من يكون « العدوين » حتى وجدت رأس الرجل ذا العمامة الحمراء وصاحبه يقول وكأنه يتكلم وهو نائم :

— وحد الله .. سيبك .. يا باسط ! الى يزرع الجميل عمره ما يحصد غدر . والناس ما بتتناساش .. قدم لهم السبت تلاقى ألف حد قدماك . وكله فدا السلطان . ماداد يا سلطان يا حبيبي على طول المدد ماداد

— ٧ —

هناك طريقة مشهورة لجعل السلحفاة تتحرك باستمرار وذلك بأن نربط على ظهرها عصا طويلة نضع في نهايتها طعاما تراه السلحفاة فتتحرك للوصول إليه وبالطبع لا تصل إليه أبدا ، ولهذا تستمر تتحرك . نحن مثل هذه السلحفاة لا بد لكى نتحرك أن يكون ثمة أمل في متناول أبصارنا نحاول الوصول إليه . ولكننا أحيانا لا نرى الأمل ، تخفيه عنا أحداث (م ٩ — حادثة شرف) :

الحياة فتتوقف ، لا يائسين ولكن لكي نبحث عن الأمل . ولا بد للبحث عن الأمل أن يكون لدينا « أمل » قوى فى العثور عليه . فترات البحث عن الأمل هذه يسميها الناس اليأس .. بل ويغالون ويضعون اليأس كشيء رأسه برأس الأمل سواء بسواء مع أن الحياة كما نرى أمل متصل ، وحركتنا مستمرة إما لتحقيق الأمل أو العثور عليه ، بل فترات البحث عن الأمل هذه التي يسمونها اليأس .. فترات يكون فيها الإنسان أشد تفاؤلا وأكثر حركة من المؤمل .

والباحث عن الأمل أو اليأس كما يقولون أشد حرصا على الأمل ممن عنده أمل .. والذي لا يملك القرش أكثر حرصا عليه ممن يملكه . بل إن المؤمل قد يضيع منه الأمل أما الباحث عن الأمل فإنه لا يفقد الأمل أبدا فى العثور على الأمل . اليأس أشد تفاؤلا من المؤمل ولو كان أقل تفاؤلا لمات فى الحال أو لانتحر .

وطول هذه السنين التي كنت آكل فيها وأسمن — وقد تركت قضية السلطان — كنت فى الحقيقة لم أياس من العثور لها على حل . كل ما حدث أننى كنت أتحرك يخلونى أمل ما ، ولكن الحكيم الطيب حين أراى أصابعه وسألنى ذلك السؤال ضاع من أمام عيني الأمل .. وضياح الأمل ليس بالأمر السهل ، لا بد له دائما من أسباب فى غاية المنطق والمعقولة .

وحاول أن تناقش « يائسا » ما فسوف تجد ليأسه أسبابا فى غاية القوة ولكنك سوف تجده أيضا يبحث عن الأمل . وأن يعثر الإنسان على الأمل مرة أخرى مسألة أحيانا لا تحتاج إلى منطق ومعقولة ، ولناخذ حالتى مثلا .
لـ يكن كلام الرجل المجنوب معقولا ولا منطقيًا وليس له وجهة كلام الطيب ، ولكن كم هى غريبة أمور الدنيا .. فبلا مقدمات أو علامات

وجدت أشياء مكتومة في صدري ومختزنة قد تراخت وانعكست ، وحفلت نفسي باتساع وتفتح لا حد لهما . وأحسست أن الأمر لا يحتمل أكثر من أن أمد يدي واتى بحل لمشكلة السلطان .

كان كل شيء ما قد حدث بعد ما استمعت طويلا إلى تحريفات المجنوب .. شيء وكأننى كنت أشك في وجود الله مثلا ويحيرنى أمره ، ولا أستطيع أن أجزم بوجوده أو عدمه ، وفجأة عثرت على تلسكوب غريب ممكن أن أنظر منه فأرى السماء وأتحقق من وجود الله .

ولم آخذ تحريفات المجنوب على أنها تحريفات .. أخذتها من زاوية أخرى فلا بد أن السلطان حامد هذا من نوع ما ، عاش ومات كما يعيش الناس ويموتون . ولكن أية حياة هذه ، وأى رجل هذا ؟ وترى ماذا فعله حتى يحتل من نفوس الناس تلك المكانة الرهيبة وحتى يجن أناس ويجذبوا حبا فيه وتنسج حوله الخرافات والأساطير وتقام له مئات الأضرحة في مئات البلاد وتضئ كل ليلة بعشرات الشموع مئات الليالى ، وربما لمئات السنين ؟

وأمر آخر ، فأن تعمل طيبا مسألة قد تخصك أنت وحدك ، ولكن أن يقدر الناس أعمالك وبالتالي يقدروك مسألة أخرى . فالدنيا حافلة بالطيبين الذين عاشوا للناس وماتوا من أجلهم فلماذا لا يقدرهم كلهم ؟ لماذا يقدر البعض دون البعض ، وعلى أى أساس إذن يختار ملايين الناس من أعمالك ما يستحق التقدير وما لا يستحق ؟ ولماذا يصبح بعض الناس من معبودى الجماهير كما يقولون بينما لا يكونون هم أشرف الناس ولا أطيب الناس ولا أكثر حبا للناس وتضحية من أجلهم ؟

ولم أكن أدري وأنا أقلب هذه الأسئلة كلها فى رأسى أننى ممكن أن أجد الإجابة عليها عند روجيه كليمان ..

كنت قد عدت إلى القاهرة من الإجازة القصيرة وكلى تفتح لا لمسألة السلطان حامد وحدها ، ولكن للحياة نفسها .

وكم أدركت خطئى لأنى ظلمت فترة طويلة من حياتى لا أفكر إلا فيها وحدها ، فكما يقولون قد تجد ما تفكر فيه فيما لا تفكر فيه ، وقد تجد ما لا تفكر فيه فيما تفكر فيه .

لا بد أن هذه الحكمة صحيحة إلى حد ما ، ولو إلى الحد الذى يجعلنى أؤمن أن لقاى مدام أنترناسيونال ، كان اسمها « جين » .. ولم أعرف إلى الآن جنسيتها فأحيانا كانت تقول إنها هولندية والباسور الذى معها كان من دوقية لوكسمبرج وتقول إن باريس هى محل إقامتها . وحين عرفتها كانت قادمة من جنوب إفريقيا في طريقها إلى زوجها التشيكوسلوفاكى الذى يعمل مهندس مناجم في بولندا ، وبالشرف إنى لا أبالغ فهى نفسها لم تكن تجد غرابة في هذا .. كانت تهز كتفها ببساطة وتقول : أنا أنترناسيونال . أما كيف عرفتها فالمسألة في بساطة جنسيتها . الصدف المحضة دفعتنى لأن أزور الإسماعيلية عقب الاعتداء على مصر ، والصدف المحضة هى التى دفعتنى لأن أقابل أحد أصدقائى الأطباء في مطعم اللوكاندة التى كنت أنزل فيها . والصدف المحضة هى التى دفعت صديقى هذا لأن تتولاه « نوبة شهامة » ويدعونى لأن أقيم معه في حجرتة بمستشفى الإسماعيلية وكان يعمل فيه طبيباً مقيماً . وأنا أحب جو المستشفيات والملابس البيض الحسان ، ورائحة الزول إذا جاءت إلى أنفى من بعيد وكانت لطيفة خفية .

وهناك عرفت مدام أنترناسيونال ، كانت إحدى مرضى المستشفى وكانت موضوعاً تحت الحراسة ، فقد كانت أحد ركاب الباخرة « كارولينا » السويدية التى حجزها الاعتداء الغاشم في مياه القنال .

وكانت جين هذه ملحوسة لحسة منقطعة النظير .. فهي لم تكن مريضة ولكنها حاولت الانتحار في الباخرة وأنقذوها في أول اللحظة ، ولكنها ادعت أنهم جاءوا متأخرين بعدما سرى الأسيرين في جسمها وأن قلبها مالم يعمل له « رسم » سيتوقف في الحال ، وإذا عرفنا أن الباخرة لم يكن فيها جهاز رسم قلب كهربائي أدر كنا أهداف مدام أنترناسيونال . كان هدفها أن تهبط إلى البر وتعيش في مصر ، إذ كانت قد زارت تسعا وثلاثين بلدة من بلاد العالم وكانت تريد أن تحكى لصديقاتها عما رآته في الأربعين .

وسألتها :

— ألسنت ذاهبة إلى زوجك في بولندا ؟

فقالت :

— لا ، نحن نلتقى على اللوام في باريس فأنا لا أستطيع أن أحييا في غير

باريس .

وقلت لها مرة :

— لم لا تفكرين في هدف لحياتك ؟.

فقالت : كيف أفعل هذا وهدفي في الحياة أن أحييا بلا تفكير ؟.

ولو لم تقل ذلك بطريقتها البادية الصنعة لحسبتها فيلسوفة أو من المفكرين . وكان صديقي الطبيب لا يكاد يستقر في الحجرة في أثناء الليل أو النهار خلال الأيام الثلاثة التي مكثتها في المستشفى . ماتكاد تمضي دقيقة حتى نسمع دقا : الخواجاية عندها مغص يادكتور .. ويذهب صديقي فلا يجد مغصا ولا إسهالا .. ولا يكاد يعود حتى يعود الدق من جديد : الخواجاية عندها احتباس في البول .

و كنت كثيرا ما أذهب معه ولم يكن صديقى ضيقا بها ، كانت شيئا جديدا فى حياة المستشفى الروتينية وحياته . وكثيرا ما جلمنا نتحدث ، وكثيرا ما حملنا الحديث بعيدا إلى أبعد من جدران المستشفى ومأساة الحرب . وأخطأت مرة وذكرت لها حكاية السلطان ، وكأنها كانت تنتظر طول عمرها أن يقول لها أحد شيئا كهذا . فإلى أن انتزعت من سرير المستشفى انتزعا إلى الباخرة كانت لا تزال تسألنى وتحلف وتدقق وتروع للتفاصيل وتقول :

— أوه .. ياسلام !.

وياسلام هذه هى الكلمة الوحيدة التى تعلمتها فى أثناء إقامتها بالمستشفى .

ولم تكف بعنوانى المكتوب الذى أعطيته لها ، ولكنها ظلت تردده حتى حفظته عن ظهر قلب .

وودعتنى وهى تقول :

— حتما سأكتب لك .

ولكن لم أتوقع أبدا أن تفعل .

وعدت إلى عملى ، وإلى القاهرة وإلى الساعات اليومية الثابتة التى كنت أقضيها فى دار الكتب .

كنت قد أمسكت بخيط ما ، وكان ترددى على الدار هدفه التأكد منه ، فبحثت عن أسماء جميع السلاطين الذى حكموا مصر أو حتى من قدموا إليها غازين أو زائرين ، بل حتى أسماء سلاطين آل عثمان راجعتها كلها ، ولم أجد ظلًا ولا إشارة واحدة لسلطان باسم السلطان حامد . وحتى هذا الخيط الواهن انقطع ، وبهذا فقدت كل أثر للسلطان .

غير أن حماسى لم يفتر أو يقل .

يومان فى الأسبوع كنت أذهب إلى مكتبة الجامعة ومن هنالك إلى قسم التاريخ فى كلية الآداب ، وأخطئ إذا قلت إن جهودى كانت تذهب عبثا ، إذ خلال شهور طويلة كنت قد تعلمت أشياء عن تاريخنا لم أكن أحلم بمعرفتها ، وكنت قد خرجت بعدة صداقات ليس أقلها صداقة متينة كانت بينى وبين « على بك » القزم الذى لا يكاد طوله يزيد على المتر والذى يبيع الكتب القديمة راثحا غاديا بين العتبة والأزهر . وكانت الحكاية قد تسربت منى إلى أصدقائى وإلى معارفهم حتى كنت أحيانا أجد أناسا لا أعرفهم يتسمون لى إذا قابلونى فى مكان عام ويقولون :

— هيه .. عملت إيه فى حكاية السلطان ؟ .

ونفس السؤال كنت أسمع من شبان أهل بلدنا وطلبتها ، وحتى الكهول . ومع أن الوضع قد انقلب وانتقلت من الطفل السائل إلى الرجل المسئول ، إلا أن إجابتى كانت لا تكاد تختلف عن الإجابات التى كنت أجن لها وأنا صغير .

وما أكثر ما كان يصلنى من أفكار واقتراحات ، يضرب أحدهم كفى بشلة ويقول :

— وجدت لك كتابا يصلح .

ويأخذنى آخر بالحضن ويقول :

— خلاص . عرفت حكاية السلطان .

ويحكى ، وإذا به سلطان غير السلطان . وكنت أتوقع أى شىء إلا أن أفتح صندوق الخطابات مرة أخرى فأجد خطابا راقدا فى قاعه وعليه طابع يريد أجنبى .

كان الخطاب من مدام أنترناسيونال .

وما كدت أفتحه حتى تساقط منه شيء ، ولكنى شغلت عنه بقراءة الخطاب . ولم أكن أتوقع أن يكون لها مثل هذا الخط الجميل ، ولم لأقول إنى ما كدت أعرف أن الخطاب منها حتى وجدتها تلوح فى خياطرى وأحس أنى حقيقة افتقدتها . أحيانا يبدو الشخص المتعب جذابا من بعيد . وعلى عكس طريقتهما فى الكلام كذلك الطريقة التى تظن معها أنها لا تتحدث ولكنها تمثل ، كان أسلوبها فى الكتابة رزينا حتى كدت أظن أنها أصبحت أرملة . والأغرب من هذا كانت تتحدث عن السلطان !

قالت إنها منذ أن تحركت بها الباهرة وغادرت قتال السويس وهى لا تفكر إلا مشكلة السلطان ، وقد أحست — وبنص كلامها — لأول مرة أنها وجدت شيئا يستحق أن تفكر فيه . ولأسخر منها ما شئت ولكنها فعلت والنتيجة مرفقة بالخطاب .

وتأملت ما سقط من يدى حين فتحت المظروف ، فإذا به صفحات من كتاب مطبوع .

وعدت أكمل قراءة الخطاب الغريب : لا تسل كيف عثرت على هذه النتيجة ، فمنذ عودتى إلى باريس وأنا وصديقائى لم نسترح لحظة واحدة ، ولم يكن لنا هم طول الوقت إلا البحث فى مشكلة السلطان . وكنت أريد أن أحدثك بالتفصيل عن الجهود الكبيرة التى بذلناها لولا أنى أوتر أن أخبرك بأهم شيء . ففى الشهر الماضى صدر عن إحدى دور النشر هنا كتاب يعتبر وثيقة تاريخية مهمة وهو عبارة عن مجموعة من الخطابات التى تلقاها المسيو جى دى روان من صديقه روجيه كليمان . وروجه كليمان كان أحد علماء الآثار الذين رافقوا حملة نابليون على مصر ،

ويقال إنه لم يعد وأنه استمصر وارتدى الملابس الوطنية وأقام هناك .
وهأنذا أرسل لك مع خطاى هذا بعض صفحات منتزعة من الكتاب وهي
تحتوى على الخطاب الأخير . ولعلمك أن الذى قام على تحقيق هذا الكتاب
ومراجعته وتلوين الملاحظات عليه هو الدكتور س . مارتان عضو
الأكاديمية فرانسيي . وبهذا تستطيع أن تطمئن تماما إلى سلامة كل ماورد
فيه . وأنا لا أعرف إذا كان ما جاء فى الخطاب الذى أرسله العالم الفرنسى
مايكفى لحل لغز السلطان أم لا ، ولكن لا أريد أن أمنعك من قراءة الشيء
الذى انتظرتة طويلا وأظنك فى شغف شديد للاطلاع عليه .
أرجوك .. اكتب لى حالا وأخبرنى بكل شيء .

عزيزتك

جين انترناسيونال

ملحوظة : هل عندكم حقيقة قرية اسمها « شطانوف » ؟
وهل لا تزال موجودة إلى اليوم ؟ صفها لى فى خطابك أرجوك .

والواقع أنى لم أكن فى شغف شديد لقراءة الصفحات .. كانت حالتى
أقرب ما تكون إلى الذهول . لم يكن ذهول الدهشة ولكنه كان ذهول
الاطمئنان . فأننا لم أصارح أحدا برأى هذا ولكنى كنت كثيرا ما أفكر
فيه . كنت أحيانا ينتابنى خوف من نوع ما .. خوف أن أكون قد
ضحخت الموضوع أكثر مما هو فى الواقع ، خوف أن يثبت لى فى النهاية أن
السلطان حامد هذا ليس له لغز ولا مشكلة ، وأننى أنا الذى صنعت اللغز

وخلقت الإشكال ، وممكن ألا يثبت أن هناك سرا وراءه ولا يحزنون .
ولو - اث هذا كنت أصبت حقيقة بالذهول .

لحظتها كنت أحس براحة غريبة .. راحة تمنعني عن الحركة وحتى عن
محاولة معرفة الحل ، وكأنه كان يكفيني أن أعرف وأتأكد أن هناك حقيقة
سرا ، راحة مضت تدفعني إلى أن أفكر في أى شيء إلا التفكير في تصفح
الأوراق .

وخطرت لى شطانونف .. لماذا لم أتذكر أن جدى الأكبر طالما حدثنى
عنها وطالما ذكرنى أن لنا هناك أقرباء ، وأن جدى الأعلى غادرها في أيام
القحط واستقر في بلدنا ؟ ولماذا لا يكون السلطان حامد قد أقام فترة في
شطانونف في الزمن القديم ، لماذا لا أكون من أحفاده ؟
وقلت أرحم نفسي وأقرأ الخطاب .

ولكنى وجدت الصفحات مكتوبة بالفرنسية وأن محصولى فيها
ضعيف ، ولذا أسرعت إلى أحد الأصدقاء الضليعين فيها واشتركتنا في
ترجمته وهكذا كانت بدايته :

الخطاب رقم ١٠

هذا هو الخطاب الأخير في المجموعة وإن كان بعض الناس يعتقدون أنه
لم يكن الأخير ، وأن الأستاذ كليمان أرسل بعده خطابا إلى صديقه
المسيودى روان ولكن الصديق مزقه عقب قراءته لسبب لا يزال مجهولا .
أما مصير روجيه كليمان بعد كتابته هذا الخطاب فليس معروفا على
وجه الدقة . ومع أن بعض الثقات يؤكدون أنه عاد إلى فرنسا في أخريات
أيامه حيث وافاه الأجل فإننى شخصا ضد هذا الرأى .

س . ماريشان

وها هو الخطاب ...

القاهرة في ٢٠ يونيو سنة ١٨٠١

عزيزى جى

لا زلت لأعرف إن كان خطابى الأخير قد وصل إليك أم ضل الطريق إليك ، ولا أعلم إن كنت قد كتبت ردا عليه وقد هو الآخر أم أننى لأزال سبب الظن بمصلحة بريدنا الموقرة .

على العموم وسواء ألقى خطابى هذا مصير سابقه أم وصل إليك سالما فإننى أحس أنى لا بد أن أكذب لك ، حتى ولو كنت متأكدا أنه لن يصل إليك ، فهناك أشياء كثيرة تحدث داخل نفسى وأريد أن أفضى بها لصديق ، فكما تعلم أنا لا أجرؤ على أن أهمل لأحد هنا بما يدور فى خلدى .. أعلم أنك ستسخر منى كعادتك ، ولكن أرجوك حاول أن تفهمنى فالناس هنا لا يريدون .

طلبت منى فى خطابك الذى أرسلته منذ أكثر من يثة شهوأن أحدثك عن مصر والمصريين ، وذلك الشعب الذى يحيا على ضفاف النيل .. ومشكلتى يا صديقى العزيز هى هذا الشعب .

إننى أعترف لك أننى لم أكن هكنا يوم جئت . أنا كما تعلم حياىى هى فرنسا وقد اشتركت فى حمل جمهوريتنا على أكثافى . كنت وأنا أضع قدمى على أرض مصر أحس أنى مقبل على بلاد إفريقية مظلمة ، أحمل لها شعلة الحضارة وأذيقها طعم الجمهورية التى تنهل منها بلادى . فإذا بى اليوم .. ماذا أقول ؟ لقد شاهدت القوى الخارقة بعينى ياروان ، لقد مسنى سحرها ولكنك لن تفهم ، لن أجد أحدا فى العالم .. عالمكم يفهم ما أعنى فلماذا أتعب يدي وقلمى ؟

حسننا ! بسأصنع كما يصنع مرشلو الآثار وسأحدثك عن مصر ، فأظن أن الحديث في هذا هو الذى يستهويك . المصريون يا صديقى ليسوا كما تقول .. فهم لا يرقصون حول النيران فى الليل ، وحریمهم أبعد ما يكون عن حریم ألف ليلة وليلة ، وهم غير المماليك — وأظنك لا تعلم هنا — والمماليك انتهينا منهم أو من أمرهم فى أولى جولاتنا معهم ، جاءوا فى صف طويل يرتدون الملابس الحريرية المفهافة ويركبون الخيل المطهمة وخلف كل منهم عبد أسمر يجرى . جاءونا كلون كيشوت شاهرين سيوفهم ويصرخون فينا أن نخرج لهم لتدور بيننا وبينهم الحرب ويبدأ النزال .

وكانت إجابة الجنرال (يقصد نابليون) عليهم حاسمة ، فقد أطلق عليهم مدفعيته فى الحال .

وطبعا سقطوا يتخبطون ويصرخون ويلعنون ندالة الفرنسيين ويطرحون على زمن الشجاعة والإقدام .

وبعد معركة أو معركتين كنا قد انتهينا منهم كما قلت لك .

أما المصريون فبعضهم يسكن القاهرة والمدن ، ومعظمهم يزرعون الأرض ويسكنون قرى سوداء مبنية بالتراب فى الأرياف واسمهم الفلاحون .

وآه من هؤلاء يا جى !.

إذا رأيتهم عن قرب ورأيت وجوههم التى تبسم لك فى طيبة وسذاجة وأدركت خجلهم الفطرى من الغريب ، ربما يدفعك هذا إلى الاستخفاف بهم وتعتقد أنك لو ضربت أحدهم على قفاه لما جرؤ على أن يرفع لك وجهه ، ولتقبل الإهانة بكل سعادة وخشوع .

حذار أن تفعل شيئا كهذا يا جى .

فقد حاول الجنرال وكليبر ويلو ذلك وندموا .

لا أحد يستطيع أن يسير غور هؤلاء الناس .. تلك القبيلة ذات الملاح المتشابهة التى هبطت ذات زمان بعيد إلى وادى النيل وآلت على نفسها ألا تتحرك من مكانها أو تتفتت . والقبيلة التى تعلمت أن تحنى رأسها لعاصفة الغزاة ثم تمضغهم على مهل . القبيلة التى تسكن واديا مفتحا من كل الجهات تستطيع بأى جيش صغير أن تغزوه . والمشكلة ليست فى الغزو أبدا .. المشكلة ما يحدث بعد الغزو .

وأتحدى التاريخ أن يثبت أن غازيا دخل هذه البلاد واستطاع أن يغادرها سالما . لديهم آلة عجيبة — هؤلاء الفلاحين — يستعملونها لطحن الحبوب ، حجر كبير يدور فوق حجر كبير ويوضع الحب من فوق سليما ليخرج من بين الحجرين أنعم من الدقيق . لقد وجدنا الأتراك هنا قد أصبحوا دقيقا من أزمنة طويلة مضت ، وكان المماليك فى طريقهم إلى نفس المصير .. لست أدرى أين تكمن قوتهم ولا كيف تتم تلك العملية ، ولكن المؤكد أنها تتم .

وقصة جامد لا أقول إنها توضح ما أريد ولكن فسرهما إن كنت تستطيع ، لقد جئت هذه البلاد عدوا ولن أخدع نفسى وأقول — مثلما يقولون كلهم هنا — إننى جئت لأحرر المصريين من المماليك . جئت عدوا يا صديقى .. جئنا كلنا عدوا قويا مسلحا بأحدث ما وصلت إليه أوربا من مخترعات وآلات دمار .. جئنا غزاة قادرين فإذا بنا اليوم فى ورطة ، وإذا بمشاكلتنا هى كيف نتزعزع أرجلنا لننجو بأنفسنا من طمى هذا البلد وأناسه الذين نحس بأنفسنا نفوس فيهم ونختفى .

ولا أزعم أنى سأحسن الحديث عنهم ، فليس فى استطاعتى أن أفعل شيئا كهذا ، سأحدثك فقط عن حامد . فمنذ شهور كثيرة وهو الموضوع المفضل للحديث بيننا حين نملك الحديث ، ويكفى أن تعلم أن القيادة قد أصدرت أمرا غير مكتوب بمنع الحديث عنه .

وحامد هذا ليس زعيما من زعماء المصريين بل إنه إلى شهور قليلة لم يكن أحد يهتم بحامد هذا أو يقيم له وزنا ، فقد كان أحد فلاحي قرية شطانوف الواقعة بين فرعى النيل ، وأظنك لا يمكن أن تعتقد أن اسم شطانوف هذا اسم فرنسى .. ولكنه كذلك . فالقرية كان اسمها فى الأصل كفر شندى وكان بجوارها قلعة قديمة من قلاع المماليك . وحين غزونا الدلتا وطردها المماليك هدمنا القلعة القديمة وبنينا أخرى جديدة بخامات محلية وأسميناها شاتونيف (أى القلعة الجديدة) ، وكذلك غيرنا اسم البلد وسميناه باسم القلعة ، ولا تحسبنى أسخر حين أقول إن هذا كل ما صارت إليه رسالتنا تجاه بلاد إفريقيا المظلمة .. أن نغير اسما باسم ، ولكن الفلاحين غيروا فيما غيرنا بطريقتهم الخاصة ، فأطلقوا على القرية اسم شطانوف بدلا من شاتونيف .

حامد كان من فلاحي هذه القرية الذين يزرعون الأرض ويصلون لله فى الجامع ، وظل هكنا إلى أن جاءت قواتنا وعسكرت فى القلعة الجديدة ، وكانت القوات بقيادة الكولونيل بيلو الذى عانقته وأنت تودعنى فى مارسيليا ، أتذكر ؟ والقلعة كانت بالغة الأهمية إذ كانت نقطة ارتكازنا الرئيسية فى الدلتا كلها ، وكانت فى الوقت نفسه قاعدة تخرج منها الدوريات لتفتيش المنطقة بانتظام .

وكانت سياسة يلو منذ أن حل في القلعة أن نتجنب مضايقة الفلاحين أو التحرش بهم حفظا لسلامة القاعدة ، وليس لأننا أصدقاء المصريين كما كان يحاول الرجل الطيب أن يفهم الفلاحين ، ليس هذا فقط بل كانت سياسة الجيش عامة أن يحاول التقرب من الوطنيين ويوطد علاقته بهم . ولم نستفد من إقامة أمثال هذه العلاقات إذ كلما حاولنا أن نتقرب منهم ازدادوا نفورا ، وكلما حاولنا إفهامهم أننا أنقذناهم من ظلم المماليك نظروا إلينا طويلا وكادت نظراتهم تقول : جئتم لتتقلونا من المماليك ، وجاء المماليك لإنقاذنا من الأتراك ، وجاء الأتراك لإنقاذنا من التتر ، وجاء التتر لإنقاذنا من الخليفة وجاء الخليفة لإنقاذنا من البطالسة ، وجاء البطالسة لإنقاذنا من الإغريق .. لماذا نخصوننا بشهامتكم أيها السادة ؟!

وما أقسى نظرات هؤلاء المصريين حين يوجهونها إلى علو غريب ! إنهم بينهم وبين أنفسهم يعاملون بعضهم كالديوك ، طول النهار لا يتحدثون إلا شتائم ، هناك أكثر من مائة لقب للأب تبدأ من المراكوب وتمر بكل ما يلبس في الأقدام ، وتغطي المملكة الحيوانية حتى الخنزير ، وأى مكان فى جسد الأم ممكن أن يصلح مادة للشتائم . شعب ثروة شتائمه لا تجدها عند أى شعب آخر ، ولا يتكلمون إلا زعيقا . ومع هذا فليجسر غريب — أى غريب — ويحاول أن يلمس أحدهم : ما إن يحدث هذا حتى تحدث المعجزة وإذا بهم يواجهونه وقد نسوا كل ما كان بينهم من شتائم وخلافات .

وكننا دائما نحس بنظراتهم تكاد تلتهمنا ، وما أقسى أن تعيش بين شعب لا يحاول أن يخفى عداوته . وهكذا ظلت الهوة تتسع حتى حدث عصيان

القاهرة الذى حدثك عنه ، ومنذ ذلك الانفجار وأعصاب قواتنا فى انهبان مستديم .

ورغم تعليمات ييلو وتنبهاته اليومية فقد فقد أحد جنودنا المعسكرين فى شطانونف أعصابه ذات يوم وأطلق النار على فلاح كان يتبعه بنظراته .. فقتله .

وأحدث هذا العمل أسوأ الأثر فى القرية .

وذهب الفلاحون الغاضبون بزعامه شيخ البلد لمقابلة الكونيل ييلو . ولم ينتظر الرجل وذهب لمقابلتهم عند الباب وطلبوا منه أن يقتل القاتل أمامهم ، فحاول ييلو أن يقنعهم أن القاتل سيحاكم وأنه سيلقى جزاءه ، ولكنهم أصروا على أن يختار بين أمرين : إما أن يقتل القاتل أو يسلمه لهم لكي يقتصوا منه . ورفض ييلو كلا الأمرين وأمر الأهالى بالانصراف . وصدعوا للأمر وانصرفوا ..

ولكن فى اليوم التالى قتل أحد جنود القلعة وهو فى طريق عودته إليها . وذهب ييلو على رأس قوة كبيرة وقبض على شيخ البلد وأحضره إلى القلعة ، وطاف مناد فى القرية يقول : ما لم يسلم القاتل نفسه قبل مغيب الشمس فإن شيخ البلد سيعلم رميا بالرصاص .

وقبل مغيب الشمس توجه للقلعة أحد الفلاحين وقال إنه القاتل وطلب الإفراج عن الشيخ . وأخذ ييلو الموضوع كله ببساطة وقرر أن يشنق الفلاح بعد محاكمته على مرأى ومسمع من الفلاحين ليعتبر غيره بمصريه .

وكان هذا أسوأ قرار اتخذه ييلو فى حياته .

ففى اليوم التالى سيق المتهم إلى ساحة القرية الرئيسية ، وجمع كل من وجد فى القرية من أهلها وأوقفوا فى الساحة ليشهدوا المحاكمة .. وتكونت المحكمة من يلو رئيسا والماجور لسال والسيرجنت جان بروميرجر عضوين ، وكان هنالك ممثل اتهام ، أما الدفاع فلا تدهش إذ قمت أنا به .. ذلك أننى كنت قد وصلت فى ذلك اليوم بالذات لأقضى بضعة أيام فى ضيافة يلو ، ولأدرس حياة الفلاحين عن كثب . وكل ما كنت قد عرفته عن المتهم أن اسمه حامد وأنه لا يختلف عن بقية الفلاحين فى المظهر أو الشكل ، كل ما يميزه أنه كل طويل القامة طويل الأنف واسع العينين ، إصبع يده اليسرى البنصر مبتورة وعلى وجنتيه عصفورتان موشومتان لتقوية بصره كما قال لى الترجمان ... وطبعاً لم أكن أريد أن أشارك فى هذه المهزلة ، ولكن صديقى يلو ألح على لأؤدى هذا « الواجب » باعتبارى الوحيد الموجود الذى حمل دكتوراه فى القانون . وطبعاً كانت مهزلة .. الفلاحون جالسون وواقفون فى الساحة ينظرون لنا نظرات كلفتهم لا نفهمها ، والمحكمة تبادل التعليقات الساخرة بصوت مرتفع ، وثمة مترجم ركيك لا يجيد العربية ولا حتى الفرنسية .

وجاء دورى لأدافع عن المتهم ، ولست أدري ماذا كان رأى يلو فى دفاعى الذى بدأته بالحديث عن الثورة الفرنسية وشعاراتها المقدسة التى قامت من أجلها .. الحرية والإخاء والمساواة . كم كان مضحكاً أن أتفوه بها فى ساحة شطانوف .. والحكم صادر ولا ينقصه سوى التنفيذ .

ولحسن الحظ — ولسوئته أيضاً — لم يتح لى أن أكمل مرافعتى .. فقد هجموا علينا .. لم تكن ندرى من أين جاءوا ولكن امتلأت الساحة بتلك (١٠٤ — حادثة شرف)

العصى اللعينة التى يسمونها النبائيت ، وبالحناجر المتوحشة الرهيبة التى تصرخ لهكبر لهكبر . ولن أحدثك عن الرعب المجنون الذى انتابنا محكمة واتهاما ودفاعا وحراسا ، فقد كنا لا نزال نعانى من فويا الفلاحين التى تكونت لدينا . فقد حدث بعد الاستيلاء على القاهرة أن أرسل نابليون جيشا بقيادة مارتن ليحتل المنطقة الشرقية من الدلتا .. وخرج الجيش فى الفجر ، وما انتصف النهار حتى كانت قوائمه عائلة فى حالة يرثى لها . الجنود يرتجفون ويعيونهم تنطلق بالرعب المجنون وملابسهم فى حالة تمزق كامل ، وكل منهم يروى قصة مختلفة غريبة عن قوم متوحشين خرجوا عليهم مسلحين بالنبائيت والعصى والفئوس والمناجل وكانوا يصرخون كأكلة لحوم البشر ، وتخرج صرخاتهم كالرعد وهى تردد لهكبر لهكبر (ومعناها أن الإله أكبر من كل الأعداء) وجنوده كما تعلم هم صفوة الجيش الفرنسى المختارة ، الصفوة التى فتح بها قائدنا العظيم نابليون التماسا وأسبانيا وبولندا وانتصر بها فى سالزبورج وإيطاليا ، الصفوة التى شنت المماليك الشجعان الأقوياء فى معركتين . تصور هذه الصفوة المسلحة بالبنادق والمدافع تواجه قوة مسلحة بالعصى والمناجل فتفر مفزوعة هالعة لا تملك حتى أن تطلق بنادقها أو تتجمع صفوفها (ولماذا أخفى عليك أن بعض جنودنا تبولوا على أنفسهم من شدة الرعب) ؟ ولم يستطع أحد أن يفسر هذه الظاهرة أبدا ، وهل هى راجعة لوحشية هجوم الفلاحين أو لأسباب أخرى غير معلومة .

وكان لهذه الحادثة نتائج رهيبة .. فقد كان لرجوع جنود مارتن بهذا الشكل الدرامى أسوأ الأثر على الروح المعنوية لجيشنا كله .

منذ ذلك التاريخ أصيب جنودنا بمرض الخوف من الفلاحين إلى درجة جعلت أحد أطباء الجيش يطلق على هذه الحالة (فلاحين فويا) .
غير أن هذا المرض بدأ يزول تدريجيا حين تم لنا الاستيلاء على مصر ،
ورأينا الفلاحين عن قرب ولم نخجدهم متوحشين ولا من أكلة لحوم البشر .
وجدناهم حين عرفناهم طبيين جدا ومسلمين ويحجلون من الغرباء ..
ولكنهم مطيعون . وأحيانا كنا نخجدهم ساذجين حتى ليخيل للواحد منا أنه
لو صفع أحدهم لما احتج ولما غضب . ولم نكن نستطيع أن نصدق أنهم
هم اللذين أفرعوا قوات مارتن حتى أحالوها إلى قطع من الحيوانات
المذكورة التي تبحث عن النجاة بأية طريقة .

ماكدنا نرى هذه العصي الرهيبة التي يسمونها النبايت ونسمع لهكر
هذه حتى جرينا كلنا إلى القلعة لنحتمي بها . ولم تحدث في هذا اليوم
خسائر .. كنا فقط قد خسرنا المتهم . إذ كانوا قد استطاعوا في غمرة
الارتباك الشديد الذي حدث أن يهربوه . وتولى ييلو غضب جامع وجمع
قواته في فناء القلعة وألقى عليهم خطابا يفيض بالتأييد والتويخ ، وقال
لهم إننا سنخرج كلنا من القلعة ولن نعود حتى نكون قد قبضنا على حامد
هذا وعلى عشرة غيره ..

وتركه هو يواصل جهوده المظفرة ، أما أنا فقد أخذت طريقى عائدا
إلى حفرياتى في منطقة الهرم . ولكن أخبار ما حدث بعد هذا كانت تصلنا
من القاهرة باستمرار ولم أعرفها وحدى .. كان الجميع يعرفونها .
فقد خرج ييلو على رأس قوة القلعة كلها وحاصر شطانوف وفتش كل
المزارع التي حولها وفتش كل البيوت ولم يعثر على حامد . فقبض على شيخ
البلد وعلى عشرة من الأهالى ، ونادى المنادى أيضا بأنه ما لم يظهر حامد

فسيعدمهم .. ولكن الشمس غابت ولم يظهر حامد . وخاف ييلو إن هو أطلق النار على الفلاحين الأسرى أن يزداد الشغب .. فأعطى أهالي شطانوف مهلة أخرى ، ولما لم يظهر حامد غضب ييلو وأطلق النار على شيخ البلد واحتفظ بالباقيين أحياء .

وكان لإعدام شيخ البلد دوى شديد في شطانوف والبلاد التي حولها ، وسرت إشاعة تقول إن حامد الفلاح أقسم أنه سوف يقتل ييلو انتقاما للشيخ .

ولكن ييلو لم يكن بالرجل الذئبي يخيفه التهديد ، فقد استمر يخرج على رأس الدوريات التي تبحث عن حامد .. ولكنه خرج مرة وعاد محمولا على حصانه وجسده ممزق بالثقوب .

ولم ينم الجنرال ليلتها وأمر بتسيير القوات التي كانت تعسكر في شراخيت إلى شطانوف ، وعهد بالقيادة إلى الجنرال كليبر نفسه . وكانت مهمة القائد الجديد هي التنقيب في منطقة شطانوف وما حولها بحثا عن حامد هنا ، الفلاح ذى الإصبع البنصر المبتورة ، والعصفورين الموشومتين على وجنتيه .

ولم يكن الهدف من القبض على حامد هو إعدامه لرد اعتبار جيشنا فقط ، ولكن كان الهدف هو القضاء عليه نفسه ، إذ أن قتله لييلو أكسبه شعبية هائلة في القرى المجاورة . وشعور الفلاحين لنا باعتبارنا كفارا وأجانب وأعداء قد بدأ يتبلور حول شخص حامد هذا ، خاصة وقواتنا كانت لا تراعى المجاملة في الاستيلاء على الأطعمة وعلى الخيول بلا مقابل . وضع كليبر خطة دقيقة حاصر بها منطقة وسط الدلتا كلها حتى أصبح وقوع حامد متوقعا بين يوم وآخر . ولكننا يا صديقي كنا نواجه قوما

غريبين لا نعرفهم .. فقد وجد كليبر نفسه المحاصر وسط السحنات المتشابهة المتفاهمة التى لا تستطيع أن تعرف ما يدور خلف جبهاتها أبدا . وكانت العلامة المميزة لحامد معروفة بالوشم على وجنته وإصبعه البنصر المبتورة فانظر ماذا حدث ؟

جميع حقول النرة تركت بلا حصاد وانتزعت منها ثمراتها وهى واقفة . ففى أرض مصر المستوية لا يمكن الاختفاء والاحتباء إلا فى حقول النرة ، تلك الحقول التى يمكن أن يكون بينك وبين الشخص أمتار قليلة ولا تراه . وعرف كليبر عن طريق العيون الكثيرة التى يستخدمها أن كل قرية فى الدلتا قد أعدت لحامد بيتا وزوجة ! وكانت الأنباء تحيىء أن حامد سيكون فى قرية كذا فى يوم كذا .. وتهاجم القوة الفرنسية القرية وتحاصرهما حصارا لا تفر منه إبرة ، ومع هذا تجدد حامد ينزلق من بيت إلى بيت حتى يصل إلى حافة القرية ويتلعه حقل ذرة قريب . وكان كل من يعثر عليه وعلى وجنتيه وشم العصفورين أو إصبعه البنصر مقطوعة يقبض عليه فورا . ولكن لو حظ أن عدد المقبوض عليهم يزداد بكثرة شديدة ، وبعد البحث اتضح أن الفلاحين — لكى يخفوا حامد بعلاماته المميزة ، رأوا أن يرسم أكبر عدد منهم وشم العصافير على وجنته ويقوم بتر بنصره اليسرى حتى لا يصبح ممكنا أن تميز حامد من بينهم . وبعد أن كان وشم العصافير على الوجنت علاجا لتقوية البصر أصبح عادة شعبية ، وبت الإصبع البنصر أصبح مجال تنافس بين رجال القرى وشبانها ومرتبة من مراتب الشجاعة والبطولة . وكان لا بد أن يحدث ما حدث يا صديقى ، فشيئا شيئا بدأت عصابات صغيرة تتكون من مبتورى البنصر وواشمى العصافير

وتهاجم وتقطع الطريق على قواتنا وتغتال أفرادها ، وكان أفراد هذه العصابات يسمون أنفسهم أولاد حامد .. وأطلقوا على حامد اسم حامد الأكبر ثم سموه «حامد السلطان» (والسلطان هنا علامة للتبجيل الشديد) . وبدأ اسم حامد يزعج كليبر بشكل رهيب كلما مرت قواتنا في قرية صرخ وراءها الأطفال : حامد حامد . وكان المؤذنون الذين يستدعون الناس للصلاة في المساجد (أناس يقابلون أجراس الكنائس عندنا ولكن بدلا من أن ندق يؤذن الشيخ) كانوا يقولون في آخر الأذان . انصرني يارب على أعدائي غايي ، لك حامد . وكانت قواتنا حين تمسكهم يقولون : إنا فقط نردد كلام الله ، كلام القرآن . وأصبحت عملية القبض على حامد مستحيلة .. وعملية حصار وسط الدلتا فائدة منها . كان الرجل قد ذاب في الأجساد الخشنة التي تلبس ساذجة ، وأصبح المهم هو ألا يفضي على شخص حامد .. ولكن المهم هو القضاء على اسمه الذي أصبح كالقيممة والسحر ، بل أصبح أخطر من كل بنادق جيشنا فقد كان الفلاحون يطلقونه على قواتنا أذ ، رأوها . واسم كهذا إذا اتفق قوم كهؤلاء على ترديده وإطلاقه على أذان قواتنا كل يوم وكل لحظة وبشكل مستمر ، يصبح أثره أقوى من الرصاص على معنوية قواتنا ، ولهذا فكثيرا ما كانوا يفتلون أعصابهم وي يكون أو يقتلون من يكون أمامهم من المصريين .. وكلما قتل واحد منهم قتلوا واحدا منا .

و غزا اسم السلطان حامد كل أنحاء الدلتا ، ثم دخل القاهرة وانتشر بين أهلها انتشارا حثيثا حتى أصبحوا في حلقات الذكر يقولون بلل يا سلطان «حامد» مدد با سلطان «ثم غزا الاسم مصر العليا وتكونت فرق أولاد السلطان حامد في كل مكان ، وتلفت أعصابنا يا صديقي من هنا

الاسم . كان العمال الذين أستخدمهم للحفر كلما تحدثوا لا يقولون إلا حامد ، وأحيانا كانوا يتكلمون بغيرها ولكنى لا أشك لحظة في أنهم يقولون شيئا آخر غير حامد حامد حامد .

ووصلنا إلى مرحلة لم نعد نحتمل فيها سماع هذا الاسم بالمرة ، وكم استسختت إيمانهم بحامد هذا .. كانوا في نظرى كالأطفال حين يمسون شيئا ، وكلما حاولت أخذه ازدادوا استمساكا به .

ولكن مهما كان استخفافى بهم وبإيمانهم فقد كنت أعجب بهم بينى وبين نفسى . فتصور ! كلمة واحدة مثل حامد حين تبناها ، كلمة — مجرد كلمة — تحولت إلى قوة كبيرة مخيفة يا صديقى لجرد أنهم آمنوا بها . إنهم عجبون هؤلاء الناس فإيمانهم ليس عن اعتقاد وتفكير ولكنه عن حب . يحبون الشيء إلى درجة الإيمان ولأن لديهم طاقة حب هائلة يا صديقى . إنهم من كثرة حبهم لبعضهم (رغم الشتائم التى حدثتلك عنها) لديهم أنواع غريبة من القرابات .. فمحمد ابن خالة عمر . وإذا جاءت سيرة واحد أمام أحدهم وقال لك : إنه من نسائنا فلا تظن أنه أخو زوجته بل يمكن أن تكون كل القرابة بينهما أن أحد بلدياته متزوج من بلدة الرجل الآخر . إنهم ليسوا شعبا .. إنهم كتلة . وكتلتهم كانت قد التفت تماما حول حامد حتى غدا الجنرال — مهما يكن الجنرال — قزما بجواره . وانظر ما حدث .. من شهور قلائل تلقت قواتنا خبرا رقصت له فرحا .. أسعد خبر جاءها منذ أن غزت مصر .. فقد قتل حامد ! تصادف أن كان أحد ضباطنا الذين حضروا محاكمته يمر بدواريته فى السوق ولما رآه أطلق عليه النار فى الحال . ولولا أنه فر هو ودواريته فى إبان الارتباك الشديد الذى عم السوق .. لكانت الجماهير قد أكلتهم بأظافرهما وأسنانها .

ولن أحدثك عن الغضب الجامح الذى رج مصر من أقصاها لأقصاها .. ولا نتيجة هذا الغضب . ويكفى أن كانت إحدى نتائج مصرعه أن حرق قلعة شطانوف بكل ما فيها ، وثار القاهرة للمرة الثانية ، وأعلن المماليك استقلال الصعيد ، وأصبح الوضع من الخطورة بمكان . وكثيرا مارأيت فى أحلامى أيامها أننا نذبح كلنا على قارعة الطريق .. كنا نجما فوق قمة بركان نخاف أن يفتح فاه الضخم ويتلعنا . وما كادت قواتنا تتنفس الصعداء — رغم كل الاعتداءات التى حدثت — بعد مصرع حامد السلطان حتى جاءتنا أنباء لم نكن نتظرها ، فالفلاحون لم ينقلوا حامد من المكان الذى لقى فيه مصرعه أبدا . ظل فى مكانه لا يمسه أحد ، وفى ظرف ثلاثة أيام كانوا قد بنوا فوقه ضريحا ذاقه عالية .

والذى جن له كبير أن الناس بدءوا يفدون لزيارة الضريح فى جموع لا يحصى لها عدد . تتوافد كل يوم وتلتقى حول الضريح كما تتجمع جيوش الثمل حول كسرة الخبز . جن كبير لأنه أدرك أن قتل السلطان حامد لم يغير شيئا . كل ما حدث بعد أن كان حامد اسما تتناقله الأفواه أن أصبح حقيقة لها مكان وفوقها قبة عالية . تصور حين يصبح الشخص بموته أكثر خطورة من كل ما كانه أثناء حياته . وتصور الجماهير الغفيرة حين تأتى من أماكن بعيدة ساحقة البعد فقط لتزور ضريح ميت ، حتى ولو كان قاتله أحد الفرنسيين ؟

ماذا كان حامد هذا قد فعل ليتجمعوا حوله بتلك الطريقة المذهلة ؟ .. وهل لأنه قتل فرنسيا انتقاما لمصرع زميله الفلاح يرفعونه إلى درجة كبيرة من التقديس ؟

- أم لأنه تحرك في وقت كانت الناس في حاجة لأن ترى فيه واحدا يتحرك
كي تنطلق من عقابها وتندفع في كل اتجاه ؟
قلت لأحد العمال الذين يعملون معي :
— هل تحب السلطان حامد ؟
— أحسن من أولادي ..
— هل أنت مستعد أن تموت من أجله ؟
— لا أموت مرة واحدة ، أموت مرات من أجله ..
— لماذا .. ؟
— لماذا ؟! هذه مسألة لا يصح فيها السؤال .
— هل تعرف عنه شيئا ؟
— كل ما أعلمه أنني مستعد أن أفديه بروحي .
— من هو السلطان حامد يا محمد .. ؟
— يكفي أنه مات شهيدا ..
— ولا شيء غير هذا ؟
— ولا شيء غير هذا ..
لقد جئنا نغزو هؤلاء القوم بتفوقنا . بمدافعنا ، وموسيقانا النحاسية ،
ومطبعتنا ، وتفاعلات كيميائنا ، ولكن أنى لنا بقدرتهم الخارقة على التكتل
والحب والبقاء ؟ أنى لنا بإيمان كهذا ؟ أنى لنا بالقدرة على أن نكون أفرادا
إذا أردنا ، وكتلة واحدة حين نريد ؟
يمكن أن نكون قد أدهشناهم بحضارتنا ، ولكن صدقني لقد روعوني
بخامدهم .
ومسكين جنرال كليبر .

فقد كانت أنباء زيارات الآلاف للضريح تقلقه وتجعله يكثر من ابتلاع سلفات المانيزيا ، وكل ما فعله بقتل السلطان أن أوجد أمام المصريين شيئا ملموسا يجتمعون حوله ويرددون اسمه في صيحات صاخبة تجلجل تحت قبة السماء .

وكان أولاد السلطان حامد قائمين بنشاطهم الحاد على قدم وساق ، فكان الناس يقبلون لزيارة الضريح وهم لا يعرفون لماذا هم مقبلون ، ويعودون وهم لا يعرفون كل شيء عن الحرب التي دارت بينه وبين الكفرة ، وعن قتله غدرا ومصرعه ، وعن الانتقام . ولم ينتظر كليبر حتى ينفجر البركان .. فقد هاجم الضريح بكل قواته وهدمه وانتزع الجثة من مكانها ولم تكد تمضى على وفاتها أيام ، وألقاها في النيل .

وما كاد يستقر في ثكناته حتى كانت الجثة قد استخرجت من الماء بطريقة غير معروفة ، وحتى كان قد اختير لدفنها مكان قرب الشاطئ ، وحتى كان قد بدئ في بناء ضريح آخر فوقها . وفي أيام كانوا قد انتهوا من إقامة ضريح بدا أكثر ضخامة من الضريح الأول . وقبل أن يتم البناء كانت جماهير الفلاحين وسكان المدن عرفت مكانه وبدأت تغد بالآلاف المؤلفة إليه .

وقال كليبر لأركان حربه : إن عليهم أن يقضوا على هذه الخرافة قبل أن تقضى هي عليهم . وتشاوروا طويلا فيما يفعلونه .. ولو لم يكن كليبر كاثوليكيًا لوافق على حرق الجثة . ولكنهم وجدوا حلا وسطا في تقطيعها قطاعا صغيرة وذرها في أنحاء البلاد ، وليبحث المصريون حينئذ عن إله آخر يؤمنون به . أو خرافة أخرى يتمسكون بها ويتشبثون .

وفي الليل وكان لا يمكنهم تنفيذ شيء كهذا إلا تحت جنح الظلام ،
تسلل الجيش الجمهوري إلى ضريح السلطان حامد وسرق الجثة
وقطعها .. ووزعت على فرق مضت تبذرهما في طول البلاد وعرضها .
ونام كليبر ليلتها أعمق نوم .

ولكى أكمل لك القصة لا بد أن أضيف أن كليبر نام نومه العميق ذاك
لليلة واحدة فقط ، فقد بدأت الأنباء تترى بعد هذا بأن المصريين قد بدعوا
يقيمون ضريحاً فوق كل مكان سقطت فيه قطعة من جسد السلطان .
وبعد أن كانت مشكلة كليبر سلطان حامد واحد أصبح لديه الآن
مئات السلاطين . كل سلطان منهم تفد إليه الآلاف المؤلفة من الجموع
وتلتف حوله وترتج السماء بذكر اسمه ، ويتخذ أولاد السلطان مركزاً
ل للنشاط .

وهل تلو مني بعد هذا حين بدأ أمر السلطان حامد يشغلني إلى درجة
دفعتي أن أستبدل ثيابي الأوروبية بثياب وطنية ، وأذهب لزيارة واحد من
مئات الأضرحة المقامة له لأعرف سر هذا التعلق به ، وأعرف لم وقع
اختيارهم عليه ليرفعوه إلى مصاف الآلهة .

لقد فعلت ذلك بالأمس إذ كان يوم الخميس يوم زيارة الضريح ، يوم
يقبل الآلاف من أركان الأرض البعيدة وعليهم غبار الحقول ولقحة الشمس
يلتقوا عند صاحب المقام . وما أغرب ما رأيت .. ازدحام هائل وكأنه
يوم الحشر ، ورجال كثيرون في ثيابهم البيضاء المتسخة ، ونساء كثيرات
في أرديةهن السوداء ، وأنوار كثيرة .. أنوار المشاعل وأنوار الشوارع
وأنوار لا تدرى مصدرها وكأنها تتولد من زحمة الناس ، ودقوف كثيرة

تضرب فينخلع لها القلب ، جباه يلمع فيها العرق ، وعيون غامضة متطلعة ، وأيدي تلوح ، وعشرات الآلاف من الخناجر تخرج عشرات الآلاف من النداءات المبحوحة المستغيثة الأمرة .. « يا سيدى حامد » كلمة واحدة مكونة من ملايين الكلمات الخارجة من الصلور المتضاغطة ، كلمة كبيرة ضخمة تتجمع فوق الضريح كسحابة مقدسة من موسيقى ضوئية راجفة تهتز وتنبسط على فرع الدفوف .

وأدركت أن ماتحت الضريح ليس هو المهم ، المهم هو الأجساد الخشنة الغليظة الملتفة حول الضريح ، المهم هو النداء الواحد الصادر من عشرات الآلاف من الأفواه الواسعة الجائعة ، المهم هو الوجه الآخر للوحش الخرافى الذى خلع قلوب جنودنا بضربة واحدة من يده ، المهم هو ماتفرزه هذه الجموع ويتصاعد منها ويتجمع ويتداخل ويتبلور ويختلط بأضواء المشاعل وأنوار الشوارع وقرعات الدفوف واهتزازات الأجسام .

لقد وقفت مشدوها يا صديقى وكأنى أرى هذا المزيج الهلامى المعلق بين الأرض والسماء ، كأنى أرى الإرادة المتجمعة ، كأنى أرى كل ما لدى الناس من حب وقد ضمته صرخة واحدة . كأن تلك الأجساد الخشنة الملوثة بالطين والتراب تفرز مادة أكثر سموا من الأجساد الحية ، أكثر سموا من الحياة .. خلاصة الحياة .. جماع كل ما هو قادر فيها وقاهر .. وجماع كل ما لا يمكن مقاومته ، القوة العليا الخارقة ، سر الحياة .

وضريح حامد كان هو البؤرة التى تتجمع حولها الإرادات وتلتقى فى بؤرة تتركز الإرادة فى الخلود وتسويها لتصبح اكسيرا سحرىا قادرا على

تحقيق الخلود . ماذا أقول ؟ لقد وقفت خاشعا واجفا أراقب الجموع وهى تفرز الإيمان وتشترك فى خلقه لتعود تؤمن به ، ويتصاعد النداء الواحد من القلب الواحد فيصبح حين يلتقى بغيره مادة سامية حية تعود تنسكب فى كل قلب ، تطهره وتقويه وتغذى فيه روح البقاء .

لقد أحسست يا صديقى أنى أواجه القوى الخارقة . حقيقة أحسست بهذا .. أحسست به إلى درجة كادت تدفعنى لأنى أسجد لها وأطلب المغفرة ، أحسست بالاكسير ينسكب فى قلبى والنور الموسيقى الراجف يملا صدرى ويمتزج بمخايلى فأحس لأول مرة فى حياتى بعظمة الحياة وروعة أن نكون بشرا وآدميين نمتلك القدرة المعجزة ، قدرتنا على أن نتجمع ليصدر عن تجمعنا ما هو أسمى من حياة كل منا .
لن تدرك ما أعنى يا روان ، محال أن تدركه من غير أن تراه وتحسه ، ومشكلتى أنى رأيته وأحسسته .

أنا أكتب لك خطابى هذا من حجرة فى القلعة ومن خلال النافذة الملح جنودنا يقومون بطواير الصباح وينظفون البنادق ويستمعون إلى الأوامر ويتسلمون الذخيرة الجديدة ويزيتون المدافع ، وها هو البروجى يعزف نوبة الجنرال . وإنى أرثى لجنودنا وجنرالهم . ما فائدة البنادق والرصاص ؟ ألكى تخضع هؤلاء الناس بقتل بعضهم ؟ وما فائدة القتل فى قوم يحبون قتلاهم وموتاهم ؟ فى قوم يخلقون من الميت الواحد مئات الأحياء ويخلقون لكل حى بعد هذا آلاف الأولاد ؟

إنى خائف يا روان .. منذ الأمس وأنا أحس بقوى لا قبل لى بها تجذبنى إلى هذا الشعب وتهيب لى أن أعرف سره . وسوف أقول لنفسى إنها محاولة للدراسة ولكن لا تصدقنى فأنا لا أصدق نفسى . إنى أقولم

بعنف . إن ثقافتى وتراثى وعقلى تمنعنى أن أنجذب إلى كلهم حين تتجمع ولكنى لم أعد نفسى ، لقد غيرت ليلة أمس أشياء كثيرة داخلى . إلى خائف أن تنتهى مقاومتى .. خائف أن أنسل اليوم أو غدا وأذهب إلى ضريح من مئات أضرحة السلطان حامد الفلاح المبتور البصر الذى اشتركت فى مهزلة محاكمته ، خائف خوف الموت أن أفعل له مثلما كنت أفعل للعذراء فى الكنيسة عندنا فأضئ له شمعة وأضعها بجوار شمعات الفلاحين الفقراء لتنير قبره .

وصحيح أن شمعتى لن تكون شيئا بجوار ما يحظى به السلطان من تكريم وتقديس ، فما هى سوى شمعة واحدة .. شمعة من مئات الشموع التى أضاءت وستظل تضيء مئات أضرحته مئات الليالى ، ومن يدري ربما مئات السنين !

ولكن لا تعجب إذا أقدمت على هذا اليوم أو غدا أو فى مساء قريب ، فأنى أحس بنفسى سائرا بلا إرادة إلى هذا المصير . أحس بمقاومتى تتلاشى وتنتهى .

النجلة يا روان !

الدكتور يوسف ادريس

(١) مجموعات قصص قصيرة :

- أرخص أليالى
- جمهورية فرحات وقصة حب
- أليس كذلك
- البطل
- حادثة شرف
- آخر النبا
- نغمة الآى آى
- التداهاة
- بيت من لحم
- أنا سلطان قانون الوجود
- أقلها

(ب) المدرجات :

- ملك القطن وجمهورية فرحات
- اللحظة الحرجة
- القراجر
- المهزلة الأرضية
- المخططين
- الجنس الثالث
- نحو مسرح عربى
- البهلوان

(ج) روايات :

- الحسرام
- العيب
- رجال وثبران
- العسكري الأسود
- البيضساء
- بصرحة غير مطلقه
- اكتشاف قارة
- مفكرة د. يوسف ادريس (جزء اول)
- مفكرة د. يوسف ادريس (جزء ثان)
- نيويورك ٨٠
- نساهد عصره
- جبرتي الستيفات

رقم الإيداع : ٥٢٦١

الترقيم النولي : ٥ — ٤٧٠ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

x.
36



*لشمن ١٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه